سورة الأنفال

- ٨ -

(وهى السورة الثامنة فى العدد ووضعت موضع السابعة من السبع الطُّوَل مع أنها من المثانى وهى دون المئين التى تلى الطول، لما سيأتى . وعدد آياتها ٧٥ آية فى عدد الكوفى و٧٦ فى الحجازى و ٧٧ فى الشامى)

سورة الأنفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير و زيد بن ثابت . وقال ابن عباس : إنها نزلت فى بدر، وفى لفظ تلك سورة بدر، وقيل إنها مدنية إلا آية (٦٤ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب (رض) فعلى هذا وضعت فى سورة الأنفال وقرنت مع آياتها التى نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة بدر لمناسبتها للمقام . وروى عن مقاتل استثناء قوله تعالى (٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية لأن موضوعها ائتمار قريش بالنبي ﷺ قبيل الهجرة، بل فى الليلة التى خرج فيها رسول الله ﷺ مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه بقصد الهجرة وباتا فى الغار ؛ وهذا استنباط من المعنى وقد صح عن ابن عباس أن الآية نفسها نزلت فى المدينة . وزاد بعضهم عنه استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية أى إلى الآية ٣٥ للمعنى الذى ذكرناه آنفا وهو أن موضوعها حال كفار قريش فى مكة وهذا لا يقتضى نزولها فى مكة، بل ذكر الله بها رسوله بعد الهجرة . وكل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجراً فهو مدنى

ووجه مناسبتها لسورة الأعراف : أنها فى بيان حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم، هذا هو العمدة وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوى هذا التناسب، ولكنه لا يصح أن يكون شىء منه سبباً للمقارنة بينهما لأن مثل هذا الاتفاق فى بعض

المعاني مذكور في أكثر السور الكريمة ، وأنقل هنا من روح المعاني ما نقله عن السيوطي في وضع هذه السورة هنا وما تعقبه به وهو :

« والظاهر أن وضعها هنا توقيفي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر في المقدمات ، وذكر الجلال السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ للصحابة رضي الله تعالى عنهم كما هو المرجح في سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه وقد كان يظهر في بادئ الرأي أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود لاشتراك كل في اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطول ، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي فصلها من الأعراف بسورتين فصل النظير من سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة ، وقد استشكل ذلك قديماً حبر الأمة رضي الله تعالى عنه ، فقال لعثمان رضي الله تعالى عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما في السبع الطول ؟ ثم ذكر جواب عثمان رضي الله تعالى عنه وقد أسلفناه بطوله سؤالاً وجواباً ثم قال :

وأقول : يتم مقصد عثمان رضي الله تعالى عنه في ذلك بأمور فتح الله تعالى بها .

(الأول) أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة ـ لخلوها من البسملة ـ كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف إنهما سورة واحدة .

(الثاني) وضع براءة هنا لمناسبة الطول فإنه ليس بعد السبع السابقة سورة أطول منها ، وذلك كاف في المناسبة .

(الثالث) أنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين كونهما فوضعا هنا كالوضع المستعار بخلاف ما لو وضعا بعد السبع الطوال فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، ولا يتوهم هنا على هذا الوضع للعلم بترتيب

السبع فانظر الى هذه الدقيقة التى فتح الله تعالى بها ولا يغوص عليها إلا غوّاص

(الرابع) أنه لو أخرها وقدم يونس وأتى بعد براءة بهود كما فى مصحف أبى لمراعاة مناسبة السبع و إيلاء بعضها بعضا لفات معما أشرنا اليه أمر آخر آكد فى المناسبة ، فان الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التى بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص والافتتاح بآلر ، وبذكر الكتاب ومن كونها مكيات ومن تناسب ماعدا الحجر فى المقدار ومن التسمية باسم نبى والرعد اسم ملك وهو مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهذه عدة مناسبات للاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى آكد من هذا الوجه الواحد فى تقديم يونس بعد الأعراف ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعدت المناسبة جدا لطولها بعد عدة سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فانها ليست كبراءة فى الطول

« ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع ماذكرناه من تقديم الحجر على النحل لمناسبة (الر) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء و إن كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة فى الافتتاح بالم ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بالم ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها . هذا ما فتح الله به علىّ

« ثم ذكر أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قدم فى مصحفه البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس ، راعى السبع الطوال فقدم الأطول منها فالأطول ، ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ثم النحل ثم هود ثم يوسف ثم الكهف وهكذا الأطول فالأطول وجعل الأنفال بعد النور ، ووجه المناسبة أن كلا مدنية ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) الآية ، وفى الأنفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) الخ ولا يخفى مابين الآيتين من المناسبة فالأولى مشتملة على الوعد بما حصل ذكر به فى الثانية فتأمل اهـ كلام السيوطى

(الآلوسى) «وأقول قد من الله تعالى على هذا العبد الحقير ، بما لم يمن به على هذا المولى الجليل ، والحمد لله تعالى على ذلك حيث أوقفنى سبحانه على وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو لم يبين ذلك ، ثم ما ذكره من عدم التوقيف فى هذا الوضع فى غاية البعد كما يفهم مما قدمناه فى المقدمات ، وسؤال الحبر وجواب عثمان رضى الله تعالى عنهما ليسا نصا فى ذلك ، وما ذكره عليه الرحمة فى أول الأمور التى فتح الله تعالى بها عليه غير ملائم بظاهره ظاهر سؤال الحبر رضى الله تعالى عنه حيث أفاد أن إسقاط البسملة من براءة اجتهادى أيضا ، ويستفاد مما ذكره خلافه ، وما ادعاه من أن يونس سابعة السبع الطول ليس أمراً مجمعاً عليه ، بل هو قول مجاهد وابن جبير ورواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وفى رواية عند الحاكم أنها الكهف ، وذهب جماعة ـ كما قال فى إتقانه ـ إلى أن السبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة ، واقتصر ابن الأثير فى النهاية على هذا

وعن بعضهم أن السابعة الأنفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز أبادى فى قاموسه ، وما ذكره من الأمر الثانى يغنى عنه ما علل به عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد أخرج النحاس فى ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان فى زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتهما فى السبع الطول ، وما ذكره من مراعاة الفواتح فى المناسبة غير مطرد فان الجن والكافرون والإخلاص مفتتحات بقل مع الفصل بعدة سور بين الأولى والثانية والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة ، وبعد هذا كله لا يخلو ما ذكره عن نظر كما لا يخفى على المتأمل فتأمل . اهـ ما ذكره الالوسى رحمه الله تعالى

وأقول : إن جواب عثمان لابن عباس رضى الله عنهما هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة ، وابن حبان والحاكم « كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت

بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما فى السبع الطول» اه

ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقى الى أن ترتيب جميع السور توقيفى عن النبى ﷺ إلا الانفال وبراءة ، ووافقه السيوطى . ويرد عليه أنه لا يعقل أن يرتب النبى ﷺ جميع السور إلا الانفال وبراءة ، وقد صح انه ﷺ كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام، فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما فى موضعهما توقيفى وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روى عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره فى الاقطار

وهذا الحديث قال الترمذى حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف (بن أبى جميلة) عن يزيد الفارسى عن ابن عباس، ويزيد الفارسى هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره؟ والصحيح انه غيره، روى عن ابن عباس وحكى عن عبد الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف فى أمر المصاحف. وسئل عنه يحيى ابن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به . اه ملخصا من تهذيب التهذيب

فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة (أي المشايخ) فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : انا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم الينا ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول) وذلك في غزوة بدر ، وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي ﷺ فمنعه اياه ، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه اياه ، لأن الامر وكل اليه ﷺ . وعن ابن جرير : أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الاربعة الاخماس فنزلت هذه الآية . وجملة القول : أنها نزلت في غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة ، وقيل المهاجرون والانصار

قال تعالى ﴿ يسألونك عن الانفال ﴾ الانفال جمع نفل بالتحريك وهو في

أصل اللغة من النفل – بفتح وسكون – أي الزيادة عن الواجب ومنه صلاة النفل . قال الراغب : النفل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار فانه إذا اعتبر بكونه مظفوراً به يقال غنيمة ، و إذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنما بتعب كان أو بغير تعب ، و باستحقاق أو بغير استحقاق وقبل الظفر كان أو بعده ، والنفل ما يحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء ، وقيل ما يحصل من المتاع قبل أن تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله (يسألونك عن الأنفال) الآية

والمعنى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي ؟ أللشبان أم للمشيخة ؟ أم للمهاجرين أم للأنصار ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أي قل لهم الانفال لله يحكم فيها بحكمه والرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى . وقد قسمها ﷺ بالسواء . وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) الخ فيكون التفصيل ناسخاً للاجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي ، فالصواب قول ابن زيد : إن الآية محكمة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ﴿ فاتقوا الله ﴾ في المشاجرة والخلاف والتنازع ، وسيأتي في السورة مضار ذلك ولا سيما في حال الحرب ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام و إصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق ، والايثار أيضاً ، والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين كما قال (لقد تقطع بينكم) و يعبر عن هذه الرابطة بذات البين . وأمرنا في الكتاب والسنة باصلاح ذات البين فهو واجب شرعا تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم ، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين ومالك أمرهم ، والرسول يطاع في أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوحيه فيه بالقول والعمل والحكم وهذه الطاعة له تعبدية لا رأي لأحد فيها ، وتتوقف عليها

النجاة في الآخرة والفوز بثوابها ، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيما الحرب من حيث إنه الامام القائد العام، فمخالفته اخلال بالنظام العام وإفضاء إلى الفوضى التي لاتقوم معها للامة قائمة . فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى ، فقد أمره الله تعالى في تنفيذ أحكامه وإدارته بمشاورة الأمة كما تقدم في سورة آل عمران ، وأشرك معه في هذه الطاعة أولى الأمر كما تقدم في سورة النساء ، وسيأتي كيف راجعه بعضهم في هـذه الغزوة المفصلة أحكامها في هـذه السورة ورجع عن رأيه ﷺ إلى الرأى الذى ظهر صوابه ، ولكن الأمر الأخير لابد أن يكون لهم كما شاورهم في غزوة أحد في الخروج من المدينة أو البقاء فيها . فلما انتهت المشاورة وعزم على تنفيذ رأى الجمهور راجعوه فلم يقبل مراجعة ، وقد بينا هذا مع حكمته في تفسير (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) وترى في تلك السورة كيف كانت مخالفة الرماة له ﷺ سبباً في ظهور العدو على المسلمين ، فراجع تفسير (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم) في ص ٢٢٤ الجزء الرابع

ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وإدارة الأمور العامة وقيادة الجند ما كان له ﷺ منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى ، وبمشاورة أولى الأمر كما تقدم تفصيله في تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) الآية

ثم قال تعالى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى فامتثلوا الأوامر الثلاثة فان الايمان يقتضي ذلك كله ، لأن الله تعالى أوجبه والمؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته إلا أن يعرض له مايغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة أو سورة غضب ، ثم لايلبث أن يفيء إلى أمر الله ويتوب اليه مما عرض له كما تقدم في تفسير (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ ، ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا ويثبته فقال :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين الذين بين في شرطية الآية قبلها شأنهم من التقوى وإصلاح ذات البين في الامة وطاعة الله ، ورسوله على قاعدة أن النكرة إذا أعيد ذكرها معرفة تكون عين الاولى

أو بيان حال المؤمنين الكاملى الايمان مطلقا ليعلم منه أن تلك الأمور الثلاثة هى بعض شأنهم ، وقد بين صفاتهم بصيغة الحصر التى يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذى لاينكره وهى « إنما » كما حققه إمام الفن الشيخ عبدالقاهر

وصفهم بخمس صفات

(الصفة الأولى) قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الراغب : الوجل استشعار الخوف . يعنى مايجعل القلب يشعربه بالفعل، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف (وبابه فرح وتعب) وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم فى المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله ،فالوجل والفزع أخص منه .وفى سورة الحجر من حوار ابراهيم ﷺ مع ضيفه المنكرين (١٥ : ٥٢ قال إنا منكم وجلون ٥٣ قالوا لاتوجل) الخ ،وفى سورة المؤمنين فى صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم (٢٣ : ٦١ والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) فالوجل هنامقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاءوفى سورةالحج (٢٢ : ٣٤وبشر المخبتين ٣٥الذين إذاذكر اللهوجلت قلوبهم والصابرين على ماأصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وهى بمعنى آية الأنفال ،وليس للوجل ذكر فى غير هذه الآيات، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف يلم بالقلب ،وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة ،وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل فى القلب كاحتراق السعفة ،ياشهر بن حوشب، أما تجد له قشعريرة ؟قلت بلى، قالت فادع الله فان الدعاء يستجاب عند ذلك . وعن ثابت البنانى: قال قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لى،قالوا ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى. وعن عائشة (رض) قالت « ماالوجل فى القلب إلا كضرمة السعفة، فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك »السعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل إذا احترق يسمع له نشيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل يلم بالقلب من ذكر الله فيخفق له

والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ،

ومحاسبته لخلقه وإداتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن فى صلاة التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضراً لمعنى كبريائه عز وجل فيتنفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معانى اسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفيض دمعه من ذكر أسماء الله فى آخر سورة الحشر (٥٩ : ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢٢ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) الخ ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء . وانما يأخذ مثل هذا من معانى القرآن من فهمه بظواهر بعض الألفاظ بدون شعور بما لها من التأثير فى القلوب فيقابل بين هذه الآية وما فى معناها وبين قوله تعالى فى سورة الرعد (١٣ : ٢٨ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيظن أن بينهما تعارضا فيحاول التفصى منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد ، ولا تعارض فى الحقيقة ولا تنافى فى كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى فى الأنفس والآفاق اطمئنان القلوب بالايمان بالله تعالى والثقة بما عنده من ، وغير ذلك مما يأتى بسطه فى محله إن شاء الله تعالى : ولا ذكر يضرم سمعة الوجل فى القلب كتلاوة كلام الرب عز وجل (٣٩ : ٢٣ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد)

(الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ أى إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيمانا أى يقينا فى الاذعان وقوة فى الاطمئنان ، وسعة فى العرفان ، ونشاطا فى الأعمال ، ويطلق الايمان فى عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن

تعيين المراد ، وفيما رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان من صحيحيهما شواهد صريحة فى ذلك ، ومن أهمها أحاديث أقل الإيمان المنجى فى الآخرة وحديث «الإيمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » وبهذا حمل بعض الناس زيادة الإيمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الإيمان الذى فسروه بالتصديق القطعى ، والحق أن الإيمان القلبى نفسه يزيد وينقص أيضا . فان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بإحياء الله للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها (قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) فمقام الطمأنينة فى الإيمان يزيد على مادونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا ، ويروى عن على المرتضى كرم الله وجهه : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . وهذا أقوى من الإيمان بالبرهان وهو أقوى من إيمان التقليد الذى قال به الأكثرون إذا وافق الحق وكان يقينا ، والعلم التفصيلى فى الإيمان أقوى وأكمل من العلم الإجمالى ، مثال ذلك أن الإيمان بتوحيد الله تعالى لا يكمل إلا بمعرفة أنواع الشرك الظاهر والباطن التى تنافيه أو تنافى كماله ومنها ما هو أخفى من دبيب النمل ، وقد ورد فى الدعاء المأثور « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » رواه ابن حبان والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وأبو يعلى وغيرهم من حديث أبى بكر (ض) وضعفه ابن حبان والبيهقى وحسنه غيرهما وكم من مدع لتوحيد الله وناطق بكلمة الإخلاص وهو يعبد غير الله بدعائه مع الله أو من دون الله و «الدعاء هو العبادة» رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من حديث النعمان بن بشير مرفوعا

ومثل آخر : من آمن بأن الله تعالى علما محيطا بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات ، ورحمة وسعت جميع المخلوقات ، وكان علمه بهن إجماليا لو سألته أن يبين لك شواهده فى الخلق لعجز عنها — لا يوزن إيمانه بإيمان ذى العلم التفصيلى بسنن الله فى الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذى جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم فى كتابه تفصيل النشأتين والامام أبو حامد فى كتاب التفكر من الاحياء ، وقد اتسعت معارف البشر بهذه السنن والأسرار فى كل نوع من أنواع المخلوقات فعرفوا منها ما لم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من علماء

القرون الخالية ، ومن كلام العلماء فى ذلك قول الواحدى عن عامة أهل العلم : إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد . وقال الكرخى إن نفس التصديق يقبل القوة ، وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة . وضرب الغزالى مثلا لتفاوت قوة الايمان وسائر أنواع العلم بمن يرى شبح إنسان فى السدفة ثم يراه بعد وضوح الاسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه فى نور الشمس بجانبه ، فهل يكون علمه به فى كل هذه الأحوال واحدا ؟

وجملة القول : أن زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى كقوله تعالى فى سورة آل عمران فى وصف الذين استجابوا لله والرسول إذ دعاهم إلى القتال بعد ما أصابهم القرح فى غزوة أحد (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفى معناه قوله تعالى فى سورة الأحزاب (٣٣ : ٢٢ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) وعطف التسليم على الايمان هنا يؤيد كون المراد به إيمان القلب لا العمل ، وفى معناه قوله تعالى فى أول سورة الفتح (٤٨ : ٤ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) فهو فى إيمان القلب كما هو المتبادر . وأما آيتا أواخر التوبة (٩ : ١٢٥ و١٢٦) وآية سورة المدثر (٧٤ : ٣١) فمما يحتمل أن تكون زيادة الايمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن على أن البخارى استدل بآيتى التوبة وأمثالها على زيادة الايمان فى القلوب ، وعليه جمهور السلف . بل حكى الاجماع عليه الشافعى وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره . فمن العجب بعد هذا أن تنقل هفوة لبعض العلماء أنكر فيها زيادة الإيمان بالمعنى المصدرى لشبهة نظرية ، ويجعل مذهبا يقلد صاحبه فيه تقليدا ، وتؤول الآيات والاحاديث لأجله تأويلا

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى يتوكلون على ربهم وحده ، لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم إلى سواه عز وجل كما أفاده تركيب الجملة . وعن ابن عباس قال : لا يرجون غيره . والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فان من كان موقنا بأن ربه هو المدبر لأموره وأمور العالم كلها لا يمكن

أن يكل شيئا منها إلى غيره ، ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للانسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ـ وجب على الانسان أن يسعى فى تدبير أمور نفسه بحسب ماعلمه من سنن الله تعالى فى نظام الاسباب وارتباطها بالمسببات معتقدا أن الاسباب مايعقل منها كالانسان ومالا يعقل لم تكن أسبابا إلا بتسخير الله تعالى وأن ماينالة باستعمالها فهو من فضل ربه الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك . وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده وإليه يتوجه وإياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى فى الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التى أخبرنا بأنها لاتتبدل ولا تتحول . ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول فى طعامه وشرابه وسائر حاجه عليه ولا يطلب من غيره شيئا ، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع عن الاختلاف إلى المائدة مع أمثاله زاعما أن هذا عصيان لأمر الملك فى التعويل عليه وانتظر أن يرسل إليه طعاما خاصا — أى أنه يطلب من ربه أن يبطل سننه فى خلقه لأجله — فما أعظم جهله وغروره به ؟

وقد تقدم تحقيق معنى التوكل مع بسط القول فيه وكونه يستلزم الأخذ بالأسباب فى تفسير (٣ : ١٦٠ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) من سورة آل عمران فيراجع فى ص ٢٠٧ — ٢١٤ وسيأتى التذكير ببعضه فى الكلام على توكل النبى ﷺ من تفسير هذه السورة (الانفال)

(الصفة الرابعة) قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ تقدم فى تفسير هذه الجملة فى أول سورة البقرة وفى تفسير (واستعينوا بالصبر والصلاة) منها ، وفى تفسير آيات أخرى فى معناها ، وملخصها ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة فى صورتها وأركانها الظاهرة ، من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر ، وفى معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور فى مناجاة الرحمن ، وتدبر واتعاظ بتلاوة القرآن ، وتقدم أن

هذه الاقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ما جعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وغير ذلك مما يراجع في مواضعه .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى وينفقون بعض ما رزقهم الله في وجوه البر من زكاة مفروضة لاقامة دولة الاسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الأمة . وتقدم تفسيرها في أول سورة البقرة وفي مواضع أخرى مع التنبيه إلى كثرة ما ورد في الكتاب العزيز من جعل الزكاة أو النفقة مقارنة للصلاة لأنهما العبادتان اللتان عليهما مدار الاصلاح الروحي والاجتماعي في الملة ، والتعبير بالانفاق أعم من التعبير بالزكاة كما علمت .

﴿أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها: المؤمنون إيمانا حقا أو حق الإيمان الذي لا نقص فيه أو حق ذلك حقا أو حققته حقا ، ذلك بأن الإيمان حق الإيمان هو ما أعقب التصديق الاذعاني فيه أثره من أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله عز وجل . وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تتبعها سائر شعب الإيمان ، تقول العرب فلان شاعر حقا أو فارس حقا لمن نبغ في الشعر ولمن كملت فيه صفات الفروسية . روى الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبرة عن الحارث بن مالك الأنصاري (رض) أنه مر برسول الله (ص) فقال له « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : أنظر ماذا تقول فان لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ،وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ،وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارثة عرفت فالزم ـ ثلاثا » وروى عن الحسن أن رجلا سأله « أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيمانان فان كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى (إنما المؤمنون) . فوالله لا أدري أنا منهم أم لا »

ثم بين تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكملة فقال ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ الدرجات منازل الرفعة ومراقي الكرامة وكونها عند الرب تعالى

وذكره مضافا إلى ضميرهم تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها ، فان الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات فى الدنيا وفى الآخرة وعند الرب عز وجل وهذا الأخير وإن كان يكون فى الآخرة فان وصفه بكونه عند الرب وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص

وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات فى التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوى الرجال والنساء فى الحقوق (وللرجال عليهن درجة) وهى درجة الولاية العامة والخاصة . وقوله تعالى فى فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين (٤ : ٩٤ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله بالحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات فقيل : الدرجة تفضيلهم فى الدنيا وقيل منزلتهم عند الله تعالى والدرجات منازلهم فى الجنة . وفى معناه قوله تعالى فى تفضيل الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله على سقاية الحاج من سورة التوبة (٩ : ٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) الخ الآيتين بعدها . وقال تعالى فى بيان التفاوت والبعد بين متبعى رضوانه ومتبعى سخطه من سورة آل عمران (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) والظاهر أن العندية هنا عندية الحكم أو الجزاء ، لا المكانة لانها محمولة على الفريقين . وقال تعالى فى الرسل (٢ : ٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) الآية ، قالوا هذه لنبينا ﷺ ، وقال تعالى فى إبراهيم عقب ذكر محاجته لقومه (٦ : ٨٤ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) وقال فى سياق قصة يوسف مع إخوته عقب ذكر أخذه لأخيه الشقيق منهم بوجه شرعى (١٢ : ٧٦ كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) .

وقال فى درجات الدنيا وحدها وهى آخر آية من سورة الانعام (٦ : ١٦٧ وهو

الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال فى درجات الدار الآخرة بعد بيان التفاضل فى الرزق بين الكفار مريدى الدنيا وحدها والمؤمنين مريدى الآخرة (١٧ : ٢١ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وجملة القول : أن الله خلق البشر متفاوتين فى الاستعداد والعقول والأعمال واقتضى ذلك بنظام سننه فى خلقه تفضيل بعضهم على بعض درجات فى الدنيا وفى الآخرة وفى المكانة عند ربهم وهذه الأخيرة عليا الدرجات وأفضلها .

وقوله تعالى ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ معناه ولهم مغفرة من الله لذنوبهم الحقيقية التى سبقت وصولهم إلى درجة الكمال إن كانت كبيرة، وما كان من قبيل اللمم ، ولذنوبهم الاضافية التى يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عن ذكر الله حيناً ، وترك الأفضل إلى مادونه حيناً آخر ، وفوت بعض أعمال البر الممكنة أحياناً ، وأمثال ذلك مما يعبر عنه : بحسنات الأبرار سيئات المقربين ، ورزق كريم فى الجنة ، والكريم يصف به العرب كل شىء حسن فى بابه لاقبح فيه ولا شكوى منه .

---

(٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

تقدم فى تفسير قصة البقرة من سورتها أن سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود فى أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ، وأن

سبب هذه المخالفة أنه لا يقص قصة ولا يسرد أخبار واقعة لأجل أن تكون تاريخا محفوظاً ، وإنما يذكر ما يذكر من ذلك لأجل العبرة والموعظة، وبيان الآيات والحكم الإلهية والأحكام العملية . بدئت قصة البقرة بأمر موسى لقومه بذبح بقرة وذكر في آخرها سبب ذلك خلافا للترتيب المألوف من تقديم السبب على مسببه كتقديم العلة على معلولها والمقدمات على نتيجتها . ولكن أسلوب القرآن البديع أبلغ في بابه كما بسط هنالك

وههنا بدئت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعد الله تعالى بنصر رسوله والمؤمنين ، والادالة لهم من أكابر مجرمي المشركين ، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم — وناهيا من براعة مطلع — مقروناً ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدهم النصر كما وعد النبيين ، وهم الذين يقبلون حكم الله وقسمة رسوله في الغنائم — وناهيا من مقدمات للفوز في الحرب وغيرها — ثم ثنى على ذلك بذكر أول القصة وهو خروج النبي صلى الله عليه وسلم من بيته في المدينة وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه ، خلافا لما يقتضيه الإيمان من الاذعان لطاعته ، والرضاء بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكم أو يأمر به ، كما علم من الشرط في الآية الأولى (إن كنتم مؤمنين) ولعل بيان هذا الشرط وما وليه من بيان صفات المؤمنين حق الإيمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها وحكمها وفوائدها الروحية والاجتماعية والسياسية والحربية والمالية

قال تعالى ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أي إن الانفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية ، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها ، فهي كاخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر ، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع ، والحال ان كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال ، أوله ولغيره من الأسباب التي تعلم مما يأتي.

هذا ما أراه المتبادر من هذا التشبيه ، وقد راجعت بعض كتب التفسير فرأيت للمفسرين فيها بضعة عشر وجهاً أكثرها متكلف وبعضها قريب ولكن هذا أقرب وقد بسطه الامام أبو جعفر بن جرير الطبري باعتبار غايته وما كان من المصلحة فيه وهو حق في نفسه ولكن اللفظ لا يدل عليه ، وذكره الزمخشري مبنياً على قواعد الاعراب

ولا يظهر المعنى تمام الظهور فى الآيات إلا ببيان ماوقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن إسحق قال : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبى بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر « قالوا - لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب النـاس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا وكان أبوسفيان قداستنفر حين دنامن الحجازمن يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم ابن عمر الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عـيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لمـا أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولـكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فاذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لاتكون الانصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن

يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم . فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله به، فو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء [1] ولعل الله يريك منا ماتقرّ به عينك ،فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك،ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قدوعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم »

﴿ يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ﴾ قال بعض العلماء ان هذه الآية نزلت فى مجادلة المشركين للنبى ﷺ فى أمر الدين والتوحيد . وهى بهم أليق ، ولكن ماقبلها وما بعدها فى بيان حال المؤمنين وما كان من هفوات بعضهم التى محصهم الله بعدها يعين كونها فيهم وفاقا لأبى جعفر بن جرير فيه وفى رد ذلك القول ومشايعة ابن كثير له ، وذكر أن مجاهداً فسر الحق هنا بالقتال وكذا ابن اسحق وعلل الجدال فيه بقوله : كراهية للقاء المشركين و إنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ، و بيان ذلك أن المسلمين كانوا فى حال ضعف فكان من حكمة الله تعالى أن وعدهم الله أولا إحدى طائفتى قريش تكون على الابهام فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة فى إحرازه لضعف حاميته،فلما ظهر أنها فاتتهم وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما كان عند قريش من قوة وقربت منهم وتعين عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى إذ لم يبق غيرها ، صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرن للنبى ﷺ اعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلا للعير، لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له ، كأنهم يحاولون إثبات أن مراد الله تعالى باحدى الطائفتين العير ، بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال ،

(١) صبر وصدق - كل منهما بضمتين جمع صبور وصدوق .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه ما ـ لا بأن يقال إن طائفة العير مراد الله تعالى فإنها نجت وذهبت من طريق سيف البحر ولو كانت هي المرادة لما نجت ، ولا بأن يقال إننا لم نعدّ للقتال عدته فلا يمكننا طلب الطائفة الأخرى ـ فإنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله تعالى فلم يبق لجدالهم وجه إلا الجبن والخوف من القتال، ولذلك قال ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أي كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون إلى الموت سوقا لا مهرب منه لظهور أسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، وهي ما ذكرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين في العدد والعدد والخيل والزاد ، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم ، وهذا دليل قطعي لا يتخلف عند المؤمن الموقن ، وماتلك إلا أسباب عادية كثيرة التخلف ، ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين ، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ تولى الله تعالى إقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله بالباطل ووجه الخطاب إليهم بعد أن كان الخطاب له ﷺ فقال واذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ أنها لكم ، وهذا التعبير آكد في الوعد من مثل : وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم لأن هذا إثبات بعد إثبات ، اثبات للشيء في نفسه ، وإثبات له في بدله ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي وتحبون وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير تكون لكم ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا . والشوكة الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح ، ثم أطلقوها تجوزاً على كل حديد من السلاح ، فقالوا شائك السلاح وشاكي السلاح ، وإنما عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال ، وطمعهم في المال ، ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يحق الحق الذي أراده بكلماته المنزلة على رسوله أي وعده لكم إحدى الطائفتين

مبهمة وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله من الجيش ، وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة ، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحنين فانما كان تربية على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ـ إلى أن قال ـ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وقال في الثانية (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ـ إلى قوله ـ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ

قال في الكشاف : يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم والله عز وجل يريد لكم معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم ، وأذلهم ، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أي وعد بما وعد وأراد باحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق أي يقره ويثبته لأنه الحق ـ وهو الإسلام ـ ويبطل الباطل أي يزيله ويمحقه ـ وهو الشرك ـ ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أولو الاعتداء والطغيان من المشركين . وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا اليكم من مكة ليستأصلوكم . وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين أنه لا تكرار فيه ، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين ، ومحق الكافرين ، والثاني هو الإسلام ، وهو المقصد والأول وسيلة له . وهذا أظهر مما قاله الزمخشري وابن المنير

(٩) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ
بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذْ
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ
بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ (١٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
الَّذِينَ آمَنُوا . سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤)
ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس (رض) قال حدثنى عمر بن الخطاب (رض) قال « لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل و بضعة عشر رجلا ، ونظر إلى المشركين فاذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر (رض) فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك . فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون» الخ

obeikandi.com

وأما البخارى فروى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد . فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك، فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة قال« لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته : اللهم لاتودع منى ، اللهم لا تخذلنى ، اللهم لا تترنى [1] اللهم أنشدك ماوعدتنى » وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه ﷺ قال « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى »

وقد استشكل ماظهر من خوف النبي ﷺ مع وعد الله له بالنصر عاما وخاصا ومن طمأنينة أبى بكر (رض) على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي ﷺ آمنا مطمئنا متوكلا على ربه ، وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عزوجل (٩ : ٤٠ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)

قال الحافظ فى الفتح قال الخطابى :لايجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ فى تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم لأنه كان أول مشهد شهده فبالغ فى التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ماقال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر فى نفسه من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) انتهى ملخصاً

---

(١) هو من وتره يتره (من باب وعد) وله معان متقاربة منها جعله وتراً يقطع أهله أو أنصاره ومنها مسه بالأذى ومنها نقصه حقه وظلمه ومنه (ولن يتركم أعمالكم) أى لن ينقصكم من جزائها شيئا ، وقوله بعده « أنشدك ما وعدتنى » من نشده ينشده من باب قتل ، ومعناه أستنجزك وعدك إياى بالنصر والغلب.

« وقال غيره : وكان النبي ﷺ فى تلك الحالة فى مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة وإنما كان مجملا . هذا الذى يظهر ، وزل من لاعلم عنده ممن ينسب إلى الصوفية فى هذا الموضع زللا شديداً فلا يلتفت اليه ولعل الخطابى أشار اليه » اه ما أورده الحافظ فى الفتح فهو لم يطلع على أحسن منه على سعة اطلاعه

وأقول يصح أن يكون من مقاصده ﷺ من الدعاء يومئذ تقوية قلوب أصحابه وهو مايعبر عنه فى عرف هذا العصر بالقوة المعنوية ولا خلاف بين العقلاء حتى اليوم فى أنها أحد أسباب النصر والظفر ، ولكن لا يصح أن يكون علم باستجابة الله له لما وجد أبو بكر فى نفسه القوة والطمأنينة فعلمه ﷺ بربه بوقت استجابته له أقوى وأعلى من أن يستنبطه استنباطا من حال أبى بكر (رض)

وأما قول بعضهم : إن النبي ﷺ كان يومئذ فى مقام الخوف فهو ظاهر ولكنه لم يبين معه سببه ولا كونه لا ينافى كمال توكله على ربه ، وكونه فيه أعلى وأكمل من صاحبه بدرجات لا يعلوها شيء ، وقد بينا ذلك بالتفصيل فى تفسير (٣ : ١٦٠ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهى فى سياق غزوة أحد[1] ونعيد البحث مع زيادة فائدة فنقول : إنه ﷺ أعطى كل مقام حقه بحسب الحال التى كان فيها ، فلما كان عند الخروج إلى الهجرة قد عمل مع صاحبه كل ما أمكنهما من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء فى الغار لم يبق عليهما إلا التوكل على الله تعالى والثقة بمعونته وتخذيل أعدائه ﷺ لكمال توكله آمنا مطمئنا بما أنزل الله عليه من السكينة وأيده به من أرواح الملائكة ، وأبو بكر (رض) لم يرتق إلى هذه الدرجة ، فكان خائفاً حزيناً محتاجاً إلى تسلية الرسول ﷺ له

وأما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض ، وذلك أن التوكل الشرعى بالاستسلام لعناية الرب تعالى وحده إنما يصح فى كل حال بعد اتخاذ الأسباب المعلومة من شرع الله ومن سننه فى خلقه كما بيناه فى تفسير قوله

(١) راجع ص ٢١٣ ج ٤ تفسير

تعالى (٣:١٥٩ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) من ذلك السياق ، ومن المعلوم بالقطع أن أسباب النصر والغلب فى الحرب لم تكن تامة عند المسلمين فى ذلك الوقت ، لا من الجهة المادية كالمدد والعدد والغذاء والعتاد والخيل والإبل ، بل لم يكن من هذه الجهة إلا شيئا ضعيفا ، ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي ﷺ فيه . لهذا خشي ﷺ أن يصيب أصحابه تهلكة تحل فيهم ، لتقصيرهم فى بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختيارى فى الأسباب المادية ، فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم فى إقامة سننه عقاباً لهم كما عاقبهم بعد ذلك فى غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى (٣:١٦٥ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

وأما أبو بكر (رض) فلم يكن يعلم من ذلك كل ما يعلمه الرسول ﷺ وقد رآه منزعجاً خائفاً فكان همه تسليته ﷺ وتذكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفى الغار كان خائفاً ، عليه ، ولكنه رآه مطمئنا فلم يحتج إلى تسليته بل كان ﷺ هو المسلى له لما رأى من خوفه أن يمسه ألم أو أذى .

فالرسول ﷺ هو الذى أعطى كل مقام حقه : مقام التوكل المحض بعد استيفاء أسباب اتقاء أذى المشركين عند الهجرة ، ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ما تبين لهم أنه الحق الذى يريده الله تعالى بوعده إياهم إحدى الطائفتين . أجل ، كان ﷺ يعلم أن شئون الاجتماع البشرى كسائر أطوار العالم ، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك فى السور المكية بوجه عام ، ثم ذكر بشأن القتال خاصة فى الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران المدنية (٣:١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا) ثم فى سورة الأحزاب المدنية التى نزلت فى غزوتها التى تسمى غزوة الخندق أيضاً . وكان ﷺ يعلم أن سننه تعالى فى القتال كسائر سننه فى أنها لا تبديل لها ولا تحويل من قبل نزول ما أشرنا اليه فى هاتين السورتين المدنيتين اللتين نزلتا بعد غزوة بدر ، فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيما

فان قيل : كيف يصح هذا وقد وعده الله تعالى إحدى الطائفتين أنها تكون للمؤمنين، وكشف له عن مصارع صناديد المشركين ؟ فاذا كان قد جوزأن يكون وعده العام بالنصر له وللمؤمنين ــ وهو مكرر في السور المكية والمدنية ،وصرح في بعضها بأنه من سننه في رسله والمؤمنين بهم ــ غير معين أن يكون في هذه الغزوة كما قال بعض العلماء،فلا يأتي مثل هذا الجواز في وعدهم إحدى الطائفتين فيها ولا سيما بعد أن نجت طائفة العير ، وانحصر الوعد في طائفة النفير ،و بعد أن كشف تعالى له عن مصارع القوم ؟

قلنا: أما كشف مصارع القوم له فالظاهر المتعين أنه كان عقب دعائه واستغاثته ربه ، ولذلك تمثل بعده بقوله تعالى في سورة القمر (سيهزم الجمع و يولون الدبر) وزال خوفه وصار بعين أمكنة تلك المصارع .وأما الوعد فسيأتي فيه أنه كان في زمن الاستغاثة والاستجابة فإن كان قبله فأمثل ما يقال فيه وأقواه ، ما قاله العلماء في كثير من وعود الكتاب والسنة المطلقة بالجزاء على بعض الأعمال بأنه مقيد بما تدل عليه النصوص الأخرى من الايمان الصحيح واجتناب الكبائر، ومن ذلك أن الوعد المطلق بالنصر للرسل والمؤمنين في عدة آيات مقيد بما اشترط له في آيات أخرى ،مثال الأول قوله تعالى في سورة المؤمن المكية (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد) وقوله في سورة الروم المكية أيضاً(٣٠ : ٥٤ وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ومثال ذلك الثاني قوله تعالى في الآيات التي أذن الله فيها المؤمنين بالقتال دفاعا عن أنفسهم أول مرة،وذلك في سورة الحج المدنية (٢٢ : ٤٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله بعد ذلك في سورة القتال أو محمد (٤٦ : ٨ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم) وقد سبق لنا بيان هذا المعنى في التفسير و إقامة الحجة به على المسلمين الجاهلين المغرورين والخرافيين الذين يتكلون في أمورهم على الصلحاء الميتين في قضاء حوائجهم بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله في الاسباب والمسببات،حتى كأن قبورهم معامل للكرامات ، يتهافت عليها الافراد والجماعات ، يدعون أصحابها خاشعين ، مالا يدعو به الموحدون إلا الله رب العالمين ، كما فعل رسول الله ﷺ وجماعة المؤمنين

وجملة القول فى هذا المقام : أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بإعلام القرآن أن للنصر فى القتال أسبابا حسية ومعنوية ، وأن لله تعالى فيها سننا مطردة، وأن وعد الله تعالى وآياته منها المطلق ومنها المقيد ، وأن المقيد يفسر المطلق ولا يعارضه ، ولا اختلاف ولا تعارض فى كلام الله تعالى ، وكان يعلم مع ذلك أن لله تعالى عناية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ؛ وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ، ويحفهم بالعناية الربانية ، التى تكون بها القوة الروحانية ؛ أجدر بالنصر من القوة المادية ، وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه ، وكانوا يتأسون به فى هذا الدعاء ، فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد أسند الله إليهم ذلك وأجابهم إلى ما سألوا بقوله :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الآية ، قيل إن هذا بدل من قوله تعالى (وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة والاستجابة واحد على اتساع فيه وحينئذ يرتفع الاشكال الذى أجبنا عنه آنفاً من أصله، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا بيانه مع القطع بأنه عربى فصيح، وقيل إنه متعلق بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) أو بمحذوف علم من السياق، ومن نظائره فى آيات أخرى تقديره « اذكر » أو « اذكروا » إذ تستغيثون ربكم . والاستغاثة طلب الغوث والانقاذ من الهلكة

﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم ﴾ هو فى قراءة الجمهور بفتح الهمزة أى بأنى ممدكم ، وقرأها أبو عمرو بكسرها أى قائلا إنى ممدكم أى ناصركم ومغيثكم ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ قرأ الجمهور مردفين بكسر الدال من أردفه إذا أركبه وراءه وذلك أن الذى يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالباً وقرأها نافع ويعقوب بفتحها ، وفى كل منهما احتمالات لا يختلف بها المراد . أى يردفونكم أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه ، أو يردفهم ويتبعهم غيرهم . وتقدم فى تفسير مثل

هذه الآية من سورة آل عمران وتفسير قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) من الأعراف معنى المدد والامداد فى اللغة .

ثم بين تعالى أن هذا الامداد أمر روحانى يؤثر فى القلوب فيزيد فى قوتها المعنوية فقال ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ أى وما جعل عز شأنه هذ الامداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ أى تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذى عرض لكم فى جملتكم فكان من مجادلتكم للرسول فى أمر القتال ما كان . فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، وسيأتى فى مقابلة هذا إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية إذ هو المسخر لها وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً فى غير موضعه

وفى التفسير المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر «مردفين» بالمدد و بقوله « ملك وراء ملك » وعن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وعن قتادة متتابعين، أمدهم الله تعالى بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) قال يعنى نزول الملائكة عليهم السلام (قال) وذكر لنا أن عمر (رض) قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ، وأما بعد ذلك فالله أعلم . وعن ابن زيد : مردفين قال : بعضهم على أثر بعض . وعن مجاهد فى قوله (وما جعله إلا بشرى) قال إنما جعلهم الله يستبشر بهم . هذا جملة ما جمعه فى الدر المنثور من المأثور فى الآيتين . وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة و إمداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم وأنهم لم يكونوا محاربين وهنالك روايات أخرى فى أنهم قاتلوا وسيأتى بحثها . وما قاله الشعبي وقتادة من العدد لا يقبل إلا بنص من الشارع قطعي الرواية والدلالة لأنه خبر عن الغيب

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردفين الذين أيد الله بهم المؤمنين فى غزوة بدر، وبين الملائكة المنزلين والمسومين الذين ذكر خبرهم فى سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث فى تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا فى جله على تحقيق ابن جرير وذكرنا فيه ما جاء هنا، وجملته أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم، وأما يوم أحد فقد حدثهم الرسول ﷺ بالامداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن انتفى الشرط فانتفى المشروط. ويراجع تفصيل ذلك فى (ص ١١٠-١١٦ ج ٤ تفسير) فانه مفيد فى تحقيق ما هنا. ولذلك لم نطل الكلام فيه

﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ هذه منة أخرى من مننه تعالى على المؤمنين، التى كانت من أسباب ظهورهم على المشركين وهى إلقاؤه تعالى النعاس عليهم حتى غشيهم - أى غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشىء وتغطيه - تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدد وغير ذلك. روى أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على كرم الله وجهه قال «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح» وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام، ولكن قد ينعس، والنعاس فتور فى الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الادراك ولا يزيله كله فمتى زال كان نوما ولذلك قال بعضهم هو أول النوم. وفى المصباح: وأول النوم النعاس وهو ان يحتاج الانسان الى النوم، ثم الوسن وهو ثقل النعاس، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين، ثم الكرى والغمض وهو أن يكون الانسان بين النائم واليقظان، ثم العقق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم، ثم الهجود والهجوع اه. وهو يفيد أن الوسن والترنيق درجتان من درجات النعاس وأن الكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم، وفى المصباح أيضا ان النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل، والجمهور على انه من باب فتح فهو من البابين، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم، كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والفواق والكباد وقال على (رض) انهم ناموا يومئذ، وظاهر عبارته أنهم ناموا فى الليل والمتبادر

ان نعاسهم كان فى أثناء القتال ، وقد ذكرنا الخلاف فى ذلك وتحقيق الحق فيه فى تفسير قوله تعالى (٣ : ١٥٤ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) وهو فى سياق غزوة أحد . وقلت هنالك : قد تقدم فى ملخص القصة ذكر هذا النعاس وأنه كان فى أثناء القتال ، وإنما كان مانعا من الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ، ولكن روى أن السيوف كانت تسقط من أيديهم واختار الأستاذ الامام أنه كان بعد القتال الخ فيحسن مراجعته ففيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو فى (ص ١٨٥ ، ١٨٦ ج ٤ تفسير)

قرأ الأكثرون (يغشيكم) بالتشديد من التغشية وهو إما للتدرج و إما للمبالغة فى التغطية ، وقرأه نافع بالتخفيف من الاغشاء ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (يغشاكم) من الثلاثى ورفع النعاس على أنه فاعله ، وهذا لا يخالف القراءتين قبله ، بل هو كالمطاوع لهما ، ومعنى الثلاثة أن الله تعالى جعل النعاس يغشاكم فغشيكم ، وأما صيغ الفعل ودلالة قراءة التشديد على التدرج أو المبالغة دون قراءة التخفيف فيحمل اختلافهما على اختلاف حال من غشيهم النعاس ، فهو لا يكون عادة إلا بالتدريج ويكون أشد على بعض الناس من بعض ، وقد ذكرنا بحث صيغة (غ . ش . ى) فى اللغة فى تفسير سورة الأعراف .

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام﴾ وهذه منة ثالثة منه عز وجل على المؤمنين كان لها شأن عظيم فى انتصارهم على المشركين ، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جرير عن ابن عباس (رض) أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال أتزعمون أن فيكم نبيا وانكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أى على الدهاس أو الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته . هذا أثبت وأوضح وأبسط ما ورد فى المأثور عن هذا المطر فى بدر . وعن مجاهد أنه كان قبل النعاس خلافا لظاهر الترتيب فى الآية والواو لا توجبه ..

ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجلة ليس فيهم إلا فارس واحد هو المقداد كما تقدم، وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام أو لاتثبت عليها. قال المحقق ابن القيم فى الهدى النبوى: وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرا واحداً فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض وصلب الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط على قلوبهم. فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض، ثم غوروا ماعداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض وبنى لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل مشرف على المعاركة، ومشى فى موضع المعاركة، وجعل يشير بيده «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان ان شاء الله تعالى» فما تعدى أحد منهم موضع إشارته اهـ

وقد ذكر ابن هشام مسألة المطر بنحو مما قال ابن القيم، ثم قال:

قال ابن اسحاق: فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا ان الحباب بن المنذر ابن الجموح قال «يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأى والمكيدة.» قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ماوراءه من القلب - بضمتين جمع قليب، وهى البئر غير المطوية أى غير المبنية بالحجارة - ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى وذكر انهم فعلوا ذلك»

ذكر تعالى لذلك المطر أربع منافع (الأولى) تطهيرهم به أى تطهيراً حسيا بالنظافة التى تشرح الصدر وتنشط الأعضاء فى كل عمل - وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر (الثانية) اذهاب رجز الشيطان عنهم. والرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشيء المستقذر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسته كما تقدم فى المأثور (الثالثة) الربط على القلوب، ويعبر به عن تثبيتها وتوطينها على الصبر، كما قال تعالى (٢٨: ٩ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا

على قلبها . وتأثير المطر فى القلوب تفسره المنفعة (الرابعة) وهو تثبيت الأقدام به فان من كان يعلم أنه يقاتل فى أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك وهو قد يقاتل فارسا لا راجلا لا يكون إلا وجلا مضطرب القلب .

﴿ إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ الظرف هنا غير بدل من «إذ» فى الآيات التى قبله ولا متعلق بما تعلقت به بل هو متعلق بيثبت والمعنى أنه يثبت الأقدام بالمطر فى وقت الكفاح الذى يوحى ربك فيه إلى الملائكة آمراً لهم أن يثبتوا به الأنفس بملابستهم لها واتصالهم بها وإلهامها تذكر وعد الله لرسوله وكونه لا يخلف الميعاد ، والمعية فى قوله (إنى معكم) معية الإعانة كقوله (إن الله مع الصابرين)

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) و به قرأ ابن عامر والكسائى ، ومعناه الخوف الذى يملأ القلب . ولما فيه من معنى الملء يقال رعبت الحوض أو الاناء أى ملأته ، ورعب السيل الوادى . وقيل أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعيبا إذا قطعته طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال : الرعب الانقطاع من امتلاء الخوف اه . و يقال : رعبته (من باب فتح) وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بالقاء الرعب و بقذف بالرعب فى القلب لما فيه من الإشعار بأنه يصب فى القلوب دفعة واحدة ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أى فاضربوا الهام وافلقوا الرءوس — أو اضربوا على الأعناق — وقطعوا الأيدى ذات البنان التى هى أداة التصرف فى الضرب وغيره ، وهو متعين فى حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين ، فاذا لم يسبق هذا الى قطع يده قطع ذاك رأسه . والبنان جمع بنانة وهو أطراف الأصابع

وفى تفسير ابن كثير عن بعض المغازى أن النبى ﷺ جعل يمر بين القتلى ببدر — أى بعد انتهاء المعركة — و يقول « نفلق هاما » فيتم البيت أبو بكر (رض) وهو

نفلق هاما من رجال أعزة   علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما

وهو يدل على أنه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الضرورة التى اضطرتهم الى قتل صناديد قومه . واسم التفضيل فى «أعق وأظلم» هنا على غير بابه مراعاة للظاهر

فإن المشركين وحدهم هم الذين عقوه ﷺ وظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ، وروى أنه أوصى بنفر من بنى هاشم آله خرجوا مع المشركين كرها أن لا يقتلوا ، كان منهم عمه العباس (رض) ولم يكن أسلم

مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر فى قوله عن إمداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى) الخ وقوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) الخ بدء كلام خوطب به النبى ﷺ والمؤمنون تتمة للبشرى، فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعاً، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعا لماقبله من الآيات،وقيل ان هذا مما أوحى إلى الملائكة ، وتأوله هؤلاء بأنه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى فى قلوب المؤمنين بالالهام كما كان الشيطان يخوفهم و يلقى فى قلوبهم ضده بالوسواس . ولا يرد على الأول ما قيل من أنه لايصح الا إذا كان الخطاب قد وجه إلى المؤمنين قبل القتال والسورة قد نزلت بعده ـ لأن نزول السورة بنظمها وترتيبها بعده لاينافى حصول معانيها قبله وفى أثنائه ، فان البشارة بالامداد بالملائكة وما وليه قد حصل قبل القتال، وأخبر به النبى ﷺ أصحابه ، ثم ذكرهم الله تعالى به بانزال السورة برمتها تذكيراً بمنه ، ولولا هذا لم تكن للبشارة تلك الفائدة ، والخطاب فى السياق كله موجه إلى المؤمنين و إنما ذكر فيها وحيه تعالى الملائكة بما ذكر عرضا . وقد غفل عن هذا المعنى الآلوسى تبعاً لغيره وادعى ان الآية ظاهرة فى قتال الملائكة ، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعبأ الإمام ابن جرير بشىء منها ولم يجعلها حقيقة أن تذكر ولو لترجيح غيرها عليها

وما أدرى أين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظواهر و بعض الروايات الغريبة التى يردها العقل ، ولا يثبتها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التى تضاعف القوة المعنوية ، وتسهيله لهم الأسباب الحسية كانزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافيا لنصره إياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف — وقيل آلاف — من

الملائكة يقاتلونهم معهم فيفلقون منهم الهام ، ويقطعون من أيديهم كل بنان ، فأى مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم وأذلوا المشركين وقتلوا منهم الألوف ؟ وبماذا استحقوا قول الرسول ﷺ لعمر (رض) «وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وفى كتب السير وصف المعركة عُلم منه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأساً – فهل تعارض هذه البينات النقلية والعقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل . ولم يذكر ابن كثير منها الا قول الربيع بن أنس «كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به » ومن أين جاء الربيع بهذه الدعوى ؟ ومن ذا الذى رؤى من القتلى بهذه الصفة ؟ وكم عدد من قتل الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سموا وقالوا قتلهم فلان وفلان ؟ كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى شوهت التفسير وقلبت الحقائق حتى أنها خالفت نص القرآن نفسه ، فالله تعالى يقول فى إمداد الملائكة (وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة ، وان هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم الا باجتماع الف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة !

ألا ان فى هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسلة وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كعب الاحبار وأمثاله

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى ذلك الذى ذكره كله من تأييده تعالى للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب انهم شاقوا الله ورسوله أى عادوهما فكان

كل منهما فى شق غير الذى فيه الآخرة فالله هو الحق والداعى إلى الحق ورسوله هو المبلغ عنه الحق ، والمشركون على الباطل وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ أى فان عقاب الله شديد ، وأحق الناس به المشاقون له بإيثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده وعبادته ، وبالاعتداء على أوليائه أولا بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر واخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

﴿ذلكم فذوقوه﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين فى غزوة بدر أى لمن بقى منهم من الأسرى والمهزومين على طريق الالتفات عن الغيبة فى قوله تعالى قبله (بأنهم شاقوا الله ورسوله) والمعنى الأمر ذلكم — أى أن الأمر المبين آنفاً وهو أن الله تعالى شديد العقاب لمن يشاقه ورسوله — فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الخزى والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين ﴿وان للكافرين عذاب النار﴾ هذا عطف على ماقبله أى والأمر المقرر مع هذا العقاب الدنيوى أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة ، فمن أصر منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومهما ، وفى الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة للكفار آيات متفرقة فى عدة سور .

---

(١٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
ٱلْأَدْبَارَ (١٦) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
(١٧) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ
وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٩) إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن
تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا
وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

نبدأ بتفسير الألفاظ الغريبة فى الآيات فنقول (الزحف) مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبي ، أو على ركبتيه ، قال امرؤ القيس :

فأقبلت زحفا على الركبتـ ين، فثوب لبست وثوب أجر

والمشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف الدبا (صغار الجراد قبل طيرانها) قال فى الأساس : وزحف البعير وأزحف : أعيا حتى جر فرسنه. وزحّف الشيء جره جرا ضعيفا ، وزحف العسكر إلى العدو : مشوا إليهم فى ثقل لكثرتهم ، ولقوهم زحفا ، وتزاحف القوم وزاحفناهم ، وأزحف لنا بنو فلان صاروا زحفا لقتالنا . اهـ ملخصا والزحف الجيش . ويجمع على زحوف لخروجه عن معنى المصدرية (والأدبار) جمع دبر (بضمتين) وهو الخلف ومقابله القبل بوزنه وهو القدام ، ولذلك يكنى بهما عن السوأتين ، وتولية الدبر والادبار عبارة عن الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوليا ومتوجها إلى دبره ومؤخره ، وذلك أعون له على قتله إذا أدركه (والمتحرف) للقتال أو غيره هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، وأصله من الحرف وهو الطرف ، وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج ، وفى معناه (المتحيز) وهو المنتقل من حيز إلى آخر ، والحيز المكان ، ومادته الواو ، فالحوز المكان يبنى حوله حائط ، قال فى الأساس : انحاز عن القوم : اعتزلهم ، وانحاز إليهم وتحيز انضم . وذكر جملة الآية (والفئة) الطائفة من الناس (والمأوى) الملجأ الذى يأوى اليه الانسان و ينضم و (موهن) الشيء مضعفه ، اسم فاعل من أوهنه أى أضعفه ، ومثله وهنه وهنا ووهنه توهينا . و (الكيد) التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء غايته المكيد به كما تقدم فى تفسير الآية ١٨٣ من سورة الاعراف . و «الاستفتاح» طلب الفتح والفصل فى الأمر ، كالنصر فى الحرب .

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتموا الذين كفروا زحفا ﴾ أى إذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم كما كانت الحال فى غزوة بدر فان الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فثقفوهم فى بدر ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾

أى فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم ، وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعدداً ، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى ولفظ «لقيتموهم زحفا» يصلح للاحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التى نزلت فيها الآية وكون النهى عن التولى والفرار مما يليق بالمزحوف عليه لأنه مظنة له ، ويليه ما إذا كان التزاحف من الفريقين ، وأما الزاحف المهاجم فليس مظنة للتولى والانهزام فيبدأ بالنهى عنه وهو منه أقبح ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ عبر بلفظ تولية الدبر فى وعيد كل فرد كما عبر به فى نهى الجماعة لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف وكون الفرد فيها كالجماعة وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على لفظ الظهور والظهر أو القفا والأقفية زيادة فى تشنيعها لأنه لفظ يكنى به عن السوأة أى وكل من يولهم يوم إذ تلقونهم دبره ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ أى إلا متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه — أو متحرفا لضرب من ضروبه رآه أبلغ فى النكاية بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكر عليه فيقتله ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أى متنقلا إلى فئة من المؤمنين فى حيز غير الذى كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم ، فصاروا أحوج اليه ممن كان فى حيزهم ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ أى فقد رجع متلبسا بغضب عظيم من الله عليه ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ومأواه الذى يلجأ اليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم . كأن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التى يصير اليها دار الهلاك والعذاب الدائم ، أى جوزى بضد غرضه من معصية الفرار ، وقد تكرر فى التنزيل التعبير عن جهنم والنار بالمأوى وهو إما من قبيل ماهنا وإما للتهكم المحض ، فانك إذا راجعت استعمال هذا الحرف فى غير هذا المقام من التنزيل تجده لايذكر إلا فى مقام النجاة من خوف أو شدة كقوله تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف)وقوله (أو آوى إلى ركن شديد) وقوله (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وقوله (والذين آووا ونصروا) الخ

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى وقد جاء التصريح

بذلك فى أحاديث أصحها عن أبى هريرة مرفوعا عند الشيخين «اجتنبوا السبع الموبقات -أى المهلكات- قالوا يارسول الله وماهن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، وعدّ بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية وستأتى. وهذا ظاهر على قول من يسمى التخصيص نسخا كالمتقدمين. قال الشافعى رحمه الله تعالى: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، وروى هو وابن أبى شيبة عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر

وقد روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأبى بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك ان تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية خاص بيوم بدر — قيل إنه بناء على أن قوله تعالى (يومئذ) يراد به يوم بدر، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة، فانه ليس فيها ذكر «يوم بدر» وإنما المراد بتنوين يومئذ مافهم من أول الآية أى يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت. وانما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال -خلافا للجمهور- مع ما للغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة فى الاسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبى ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأييد المسلمين فيها الملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم -فاذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال فى النهى اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذى فى الآية خاصا بها، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولى والادبار فى القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم: يوم أحد، وفيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض

ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) ويوم حنين وفيه يقول الله تعالى (٩ : ٢٥ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٦ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ وهذا لا ينافي كون التولي حراما ومن الكبائر ، ولا يقتضي أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين في آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، بل قد يكون دون ذلك ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريبا

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال « كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة [1] وكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة [2] فخرج فقال : من الفرارون ؟ . فقلنا نحن الفرارون . قال : بل أنتم العكارون [3] أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده « ولفظ أبي داود » فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها فنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول ﷺ فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرارون الخ » تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد أقول : وهو مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متنا ولا سندا ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة

« ١ » حاص عن الشيء حاد وهرب « ٢ » أي الصبح « ٣ » العكار كالعطاف والكرار لفظا ومعنى

وأما قوله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ فهو وصل للنهى عن التولى بما هو حجة على جدارتهم بالانتهاء ، فان كانت الآية التى قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال فى غزوة بدر كسائر السورة ، كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلى ، كأنه يقول ياأيها المؤمنون لاتولوا الكفار ظهوركم فى القتال أبداً ، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادى ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبالقائه الرعب فى قلوبهم ، فهو بمعنى قوله عز وجل (٩ : ١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، والمؤمن أجدر بالصبر الذى هو الركن الأعظم للنصر من الكافر ، لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالايرجون) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء ، على الخائفين من كثرة الأعداء (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)

ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم ، والمجندلين لصناديد المشركين بسيوفهم إلى خطاب قائدهم وهو الرسول ﷺ المؤيد منه تعالى بالآيات ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب قائلا « شاهت الوجوه » فأعقبت رميته هزيمتهم ، وروى عن أبى جعفر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى بالمعنى : وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما قال فى استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم — ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » وروى السدى أنه ﷺ طلب من على أن يعطيه حصيا من الأرض فناوله حصيا عليه تراب فرماهم به الخ . وعن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة أيضا أن الآية فى رميه ﷺ فى بدر . فاذا لم تكن رواية من هذه الروايات وصلت إلى درجة الصحيح فمجموعها

مع القرينة حجة على ذلك . وروى مثل هذه الرمية في غزوة حنين فحمل الآية بعضهم على ذلك وهو شاذ وحملها بعضهم على رميه ﷺ لأمية بن خلف بالحربة يوم أحد وهو مقنع بالحديد فقتله وهو شاذ أيضا، فالآية بل السورة نزلت في غزوة بدر . والمعنى

﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الخ رميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين في الوقت الذي رميت فيه تلك القبضة من التراب بالقائها في الهواء فأصابت وجوههم فان ماأوتيته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمي لايبلغ هذا التأثير الذي هو فوق الأسباب الممنوحة لهم ﴿ولكن الله رمى﴾ وجوههم كلهم بماأوصل التراب الذي ألقيته في الهواء اليها مع قلته، أو بعد تكثيره بمحض قدرته، وحذف مفعول الرمي للدلالة على عمومه في كل من الاثبات والنفي ، كما قدرنا فيهما وفاقا لما تقرر في علم المعاني ـ وقد علم من هذا التفسير المتبادر من اللفظ بغير تكلف وجه الفرق بين قتل المؤمنين للكفار الذي هو فعل من أفعالهم المقدورة لهم بحسب سنن الله في الأسباب الدنيوية ، و بين رمي النبي ﷺ إياهم بالتراب الذي ليس بسبب لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته و بعدهم عن راميه وكونهم غير مستقبلين كلهم له ، ولأجل هذا الفرق ذكر مفعول القتل مثبتا ومنفيا ـ وهو ضمير المشركين ـ فنفى القتل المحسوس مطلقا وأثبت المعقول مطلقا لعدم تعارضهما فالمراد من كل منهما ظاهر بغير شبهة ، ولو أثبت لهم القتل مع نفيه عنهم بأن قال : إذ قتلتموهم ـ لكان تناقضا ظاهراً يخفى وجه جعل المثبت منه غير المنفي . وقتلهم لهم مشاهد لا يحتاج إلى إثبات من حيث كان سبباً ناقصا، وإنما الحاجة إلى بيان نقصه وعدم استقلاله بالسببية ، ثم بيان ما لولاه لم يكن وهو إعانة الله ونصره .

وأما رمي النبي ﷺ لوجوه القوم فلم يكن سبباً عاديا لاصابتهم وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد ، والجمع بين نفيه و إثباته لا يوهم التناقض للعلم بعدم السببية . ولم يذكر مفعول الرمي بأن يقال « وما رميت وجوههم » إذ لا شبهة هنا في عدم استطاعة النبي ﷺ لهذا استقلالا بكسبه المادي ، وأما هنالك فالظاهر أن القتل من كسبهم الاستقلالي . والحقيقة أنه لولا تأييد الله تعالى ونصره بما تقدم بيانه لما وصل كسبهم المحض إلى

هذا القتل ، وقد علمنا ما كان من خوفهم وكراهتهم للقتال ومجادلة النبى ﷺ فيه (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) فلو ظلوا على هذه الحالة المعنوية مع قلتهم وضعفهم لكان مقتضى الأسباب أن يمحقهم المشركون محقا .

وأما الفرق بين فعله تعالى فى القتل وفعله فى الرمى . فالأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التى تقدم بيانها ؛ كما هو الشأن فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم وللأسباب التى لا يصل إليها كسبهم عادة ، كقوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما) الخ فالانسان يحرث الأرض ويلقى فيها البزر ولكنه لا يملك انزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر ، ولا دفع الجوائح عنه . ولا يستقل إيجاد الزرع و بلوغ ثمرته صلاحها بكسبه وحده .

وأما الثانى فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادى للنبى ﷺ فى تأثيره فالرمى منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فمثله فى ذلك كمثل أخيه موسى عليه السلام فى إلقائه العصا (فاذا هى حية تسعى) فخاف منها أولا كما ورد فى سورتى طه والنمل

هذا ما يدل عليه نظم الكلام بلا تكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها ، فالجبرى يحتج بها على سلب الاختيار وكون الانسان كالريشة فى الهواء ، والاتحادى يحتج بها على وحدة الوجود ، وكون العبد هو الرب المعبود ، والأشعرى يحتج بها على الجمع بين كسب العبد وخلق الرب باسناد الرمى إلى النبى ﷺ وإلى الخالق عز وجل . وهو يغنى عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالأولى ، والقرآن فوق المذاهب وقبلها ، غنى بفصاحته و بلاغته عن هذه التأويلات كلها (كل حزب بما لديهم فرحون) وكلام الله فوق ما يظنون .

وأما موقع الفاء فى أول الآية على القول بأن الآية السابقة عليها نزلت قبل القتال تحريضاً عليه فقد قيل إنها واقعة فى جواب شرط مقدر ، واختلفوا فى تقديره وقال بعضهم بل هى لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض ، وقد يقال : إنه لا مانع من نزولها بعد المعركة ووصلها بما قبلها للدلالة على ما ذكرنا من التعليل والاحتجاج

على مشروعية النهى عن الهزيمة ، وأولى منه أن يستدل بها على نزول ماقبلها فى ضمن السورة بعد المعركة .

وأما قوله تعالى ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله ، أى انه فعل ماذكر لاقامة حجته وتأييد رسوله (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء الاختبار بالحسن أو بالسيء ، كما قال تعالى فى بنى إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) وتقدم بيانه بالتفصيل . وختم الآية بقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم إياه وحده ، عليم بصدقهم وإخلاصهم ، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذى هم عليه وخذلان الشرك ، كما أنه سميع لكل نداء وكلام ، عليم بالنيات الباعثة عليه ، والعواقب التى تنشأ عنه ، وبكل شيء .

ولما كان من سنة القرآن المقابلة بين الإيمان والكفر وبين أهل كل منهما وجزائهما عليهما قال ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أى الأمر فى المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذى سمعتم ، ويضاف إليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين ، أى مضعف كيدهم ومكرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والاصلاح قبل أن تقوى وتشتد ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر (موهن) بتشديد الهاء والتنوين ونصب (كيد) والتشديد للمبالغة فى الوهن . وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة والباقون بالتخفيف والنصب .

وقد صرح التنزيل بجزاء الفريقين فى تعليل آخر فى عاقبة الحرب ، قال فى سياق غزوة أحد من سورة آل عمران (٣ : ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قيل ان الخطاب للكفار ذكرخذلانهم واضعاف كيدهم ثم التفتت عنه إلى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ ذكر محمد بن اسحق وعروة عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير « أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة . فكان ذلك استفتاحا منه » رواه عنه أحمد ورواه النسائى فى التفسير والحاكم فى المستدرك عن الزهرى : وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين، فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ » وفى رواية « أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان : اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث فأى الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم . فالفتح هو نصر النبى ودينه وأتباعه . وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغروراً بشركه واثقاً بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمى مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبى ﷺ .

﴿ وان تنتهوا فهو خير لكم ﴾ أى وان تنتهوا عن عداوة النبى ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم، لانكم لاتكونون إلا مغلوبين مخذولين كقوله (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) والخيرية فى هذه الحالة بالإضافة إلى الاستمرار على العدوان والقتال ، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على حقيقتها وكمالها ﴿ وان تعودوا نعد ﴾ أى و إن تعودوا إلى مقاتلته نعد لما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجىء الفتح الأعظم الذى يذل فيه شرككم ، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿ ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أى ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيئاً من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً فالكثرة لا تكون سبباً للنصر ، إلا إذا تساوت مع القلة فى الثبات والصبر ، والثقة بالله عز وجل

﴿ وان الله مع المؤمنين ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قلتهم . قرأ نافع وابن عامر (وأن) وحفص بفتح الهمزة بتقدير اللام أى ولان الله مع المؤمنين

كان الأمر ماذكره ، وقرأها الباقون بالكسر على الاستئناف

وقيل ان الخطاب فى الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى: ان تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر و إن تنتهوا عن التكاسل فى القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته فى الحق بعدما تبين فهو خير لكم . و إن تعودوا إليه نعد عليكم بالانكار أو تهييج العدو ، ولن تغنى عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فها نحن أولاء قد نصرناكم على قلتكم وضعفكم. هذا أقوى من كل مارأيناه فى تصوير المعنى فأ كثر ماقالوه ظاهر التكلف، ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر .

---

(٣٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٣١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٣٣) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

كانت السورة من أولها إلى هنا فى قصة غزوة بدر الكبرى إلا أنهـا افتتحت بعد براعة المطلع — وهو السؤال عن الغنائم — بالمقصد من الدين وهو الايمان وطاعة الله ورسوله ووصف الايمان الكامل ، وانتقل منها إلى مقدمات الغزوة وما كان من عناية الله فيها بالمؤمنين ، ثم انتقل هنا أو فيما قبله إلى نداء المؤمنين المرة بعد المرة وتوجيه الأوامر والنواهى إليهم فى مقاصد الاسلام والايمان والاحسان — و ينتهى هذا بالآية ٢٩ ثم ينتقل من ذلك إلى شؤون الكفار مع المؤمنين وعداوتهم لهم وللرسول ﷺ وكيدهم له وعدوانهم عليه ، وفتنة المؤمنين به — ومنه إلى الأمر بقتالهم وحكمته ثم يعود الكلام إلى غزوة بدر وما كان فيها من حكم وسنن وأحكام وتشريع ، وهذا يدخل فى أول الجزء العاشر وهو آية (٤١ واعلموا انما غنمتم من شىء) الخ

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ﴾ ذكرت هذه الطاعة فى

الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليها قوله ﴿ ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ أى ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره ، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والاذعان الذى هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) والموصوفين بقوله عز وجل (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

ثم قرر هذا المعنى و بين مقابله بقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ وهم فريقان (الأول) الكفار المعاندون (٤ : ٤٥ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا — ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين — ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وأمثالهم من الكفار المعاندين والمقلدين ، وورد فيهم آيات سيذكر بعضها هنا (الثانى) المنافقون الذين قال تعالى فى بعضهم (٤٧ : ١٧ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟) وتقدم فى سورة الأعراف من صفات أهل النار فى الدنيا (ولهم آذان لا يسمعون بها) مع آيات أخرى والمراد فى هذا كله أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل

ثم علل الأمر والنهى بقوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الدواب جمع دابة وهى كل مايدب على الأرض قال فى سورة النور (٢٤ : ٤٣ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) الآية وقلما يستعمل هذا اللفظ فى الانسان وحده وانما يغلب فى الحشرات ودواب الركوب ، فان كان قديماً فهو هنا يشعر بالاحتقار

والمعنى ان شر مايدب على الأرض فى حكم الله الحق هم الأشرار من البشر « الصم » الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد

منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لا يعقلون » أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل. ويفرق بين الخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا ، كما قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجا أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة ، بل هم شر من هؤلاء . لأن هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف. فهم كما قال الشاعر :

خلقوا، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وإذا أردت فهم الآية فهما تفصيليا فارجع الى تفسيرنا لقوله تعالى (١٧٩:٧ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الأعراف وآيتي البقرة لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الاسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن .

﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ أي ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهدى ببقية من نور الفطرة ، لم تطفئها مفاسد التربية وسوء القدوة ، لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر ، ولكنه علم أنه لا خير فيهم لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لتولوا ﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا ﴿ وهم معرضون ﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به - كما هو مدلول الجملة الحالية - كراهة وعنادا للداعي اليه ولأهله ، لا توليا عارضا مؤقتا ، وفرق عظيم بين التولي العارض لصارف موقت وتولي الاعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقداً تاما . ومن اضطرب في فهم الجمع بين التولي والإعراض

فقد جهل معنى الجملة الحالية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، والآية نص في أنه تعالى لم يسمعهم أي لم يوفقهم للسماع النافع لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق المحبب للنفس في الخير ، وقد فقدوا ذلك بإفسادهم لفطرتهم ، وإطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة ، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين المكية بقوله (٨٣: ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقوله في سورة البقرة (٢ : ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ووصفهم فيها بقوله (١٨ صم بكم عمي فهم لا يرجعون) وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية الأخرى منها (٢: ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون) يعني أنهم كسارحة النعم تسمع الصراخ الناعق فترفع رءوسها ، ولكنها لا تفهم له معنى فإذا سكت عادت إلى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى
إذا أحس نبأة ريع وإن تطامنت عنه تمادى ولها

وفي الآيتين ٤٢ و٤٣ من سورة يونس (١٠) إيئاس النبي ﷺ من إسماع هؤلاء الصم وهداية هؤلاء العمي وقفى على ذلك بقوله تعالى (٤٤ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) فأمثال هذه الآيات تحثو التراب في فم من يزعم أن الآية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره وإيمانه ، كما أنها تسجل الجهل باللغة على من يزعم أن فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير : ولو أسمعهم لعلمه بأن فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون عن الإيمان والهدى، ونقول إن تقديره هذا هو الباطل لأنه نقيض ما أفادته « لو » من أنه علم أنه لا خير فيهم فهو لا ينتج إلا باطلا ، وعفا الله عمن صوروا هذا الإشكال الوهمي بالاصطلاح المنطقي الفلسفي وأطالوا في الرد عليه من تلك الطرق اصطلاحية الشاغلة عن كتاب الله تعالى

ألم يك خيرا لهم من هذه الحذلقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه لمحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حظه منه ؟ فإن للسماع درجات باعتبار ما يطالبه الله تعالى به من الاهتداء بكتابه : أسفلها أن يتعمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه

مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها كالذين قال الله فيهم (٤١ : ٢٦ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ويليها من يستمع وهو لاينوى أن يفهم ويعلم كالمنافقين المشار إليهم فى آية سورة القتال (٤٧ : ١٧) وذكرت فى هذا السياق - ويليها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب ، وكما يفعل فى كل وقت مرتزقة دعاة النصرانية وغيرهم إذا استمعوا للقرآن أو نظروا فيه - ويليها أن يسمع ليفهم ويعلم ثم يحكم للكلام أو عليه .

وهذه الدرجات كلها لغير المؤمنين به ، والمنصف منهم الفريق الأخير وكم آمن منهم من تأمل وفهم . نظر طبيب إفرنسى معاصر فى ترجمة القرآن فرأى أن كل مايتعلق بالطب والمحافظة على الصحة منه - كالطهارة والاعتدال وعدم الاسراف - موافق لأحدث المسائل التى استقر عليها رأى الأطباء فى هذا العصر ، فرغبه ذلك فى تأمله كله فأسلم ونظر (مستر براون) وهو ربان بارج من الانكليز فى ترجمة مستر سايل الانكليزية له فاستقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبى صلى الله عليه وسلم كان من أكبر ربانى الملاحين فسأل عنه فقيل له إنه لم ير البحر قط وكان مع ذلك أميا لم يقرأ كتابا ، ولاتلقى عن أحد درسا ، (قال) فعلمت أن هذا كان بوحى من الله لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وقد أسلم وتعلم العربية رحمه الله تعالى

وأما المسلمون فى هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارىء يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم فى حاجة إلى سماعه ، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده فى ليالى رمضان لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء ، وإنما تكون التلاوة فى حجرة البواب أو غيره من الخدم وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول : الله الله ، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لامعنى له فانما ينطق به إعجابا بنغمة التالى ، حتى انهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التى تخرج من أفواههم عند سماع الغناء

دعيت مرة إلى حفلة عرس فاذا أنا بقارىء يتلو بالنغم والتطريب وبعض

الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف الممتادة فى مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغنى على سواء ، وكان القارىء يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الاسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه كقوله تعالى (١٧ : ٤١ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا ـ إلى قوله ـ ٤٥ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ٤٦ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، و إذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ٤٧ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك و إذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

فلمـا سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحـكم الروائع والمواعظ الصوادع لم أملك نفسى أن صحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسى الذى كنت جالسا عليه ووبختهم توبيخا شديداً مبيناً لهم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ، ولا سيما أمثال هذه الآيات ، وتلوت عليهم قوله تعالى (٥٩ : ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله وتلك الأمثـال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فسكتوا وسكتوا إلا واحداً منهم أخذته العزة بالإثم ، ولكنه صـار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً ، ويهمهم معتبرا متدبرا .

وليعلم القارىء أن لفهم الـكلام نفسـه درجات فمن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الألفاظ على ما فيها من إجمال و إبهام بحسب ما تفسر به المفردات فى معاجم اللغة ، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان، ككون لفظى الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلا ، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب ، ومنهم من يكون فهمه تفصيليا ينتقل من الكليات إلى الجزئيات ، و يعدو المفهومات الذهنية إلى الماصدقات، ولكنه يجعلها بمعزل عن نفسه و يتصور أن الكلام كله لغيره وفى غيره ، بأن يقول هذه الآية نزلت فى الكافرين أو المنافقين، لا فى أمثالى من المؤمنين، و إن كان متصفاً بما تنهى عنه وتتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما أنه من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون

وإنما الدرجة العليا للسماع أن تسمع فتفقه وتعقل وتتدبر فتعتبر وتعمل حتى لا تقول يوم القيامة (٦٧ : ١٠ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)

---

(٢٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
(٢٥) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(٢٦) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له، وكثر المتعدى فى التنزيل ويقول الراغب: إن أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للاجابة فحل محلها، أقول: والاقرب الى الفهم قلب هذا وعكسه وهو ان الاستجابة هى الاجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة، وهو يقرب مما قالوه فى معانيها من التكلف والتحرى أو هو بعينه إلا أنه لا يعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم) فقوله ﴿ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ معناه إذا علمتم مافرضنا عليكم من الطاعة، وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم، فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة، وعزيمة وقوة، فهو كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة) والمراد بالحياة هنا حياة العلم بالله تعالى وسننه فى خلقه، وأحكام شرعه والحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية فى الدنيا وتستعد للحياة الأبدية فى الآخرة، وقيل المراد بالحياة هنا الجهاد فى سبيل الله لأنه سبب القوة والعزة والسلطان والصواب أن الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة بل هو وسيلة لتحققها وسياج

لها بعد حصولها ، وقيل هى الايمان والاسلام ، وانما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الاحكام ، وثمرته فى القلوب والاعمال ، وبما فى الاستجابة من معنى المبالغة فى الاجابة، وإلا فالخطاب للمؤمنين. وقيل هى القرآن ولاشك انه ينبوعها الاعظم، الهادى الى سبيلها الاقوم، مع بيانه من سنة الرسول وهديه الذى أمرنا بان يكون لنا فيه أسوة حسنة، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى، بل قال بعض العلماء أنه كان اذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له وان الصلاة لا تبطل باجابته، بل له أن يبنى على ما كان صلى و يتم، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخارى عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه - أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتيته - فقلت يارسول الله إنى كنت أصلى ، فقال « ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) ؟ الحديث . وروى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة «أنه ﷺ دعا أبى بن كعب وهو فى الصلاة» وذكر نحواً مما رواه البخارى عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ فى باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث: وفيه ان الامر يقتضى الفور لانه ﷺ عاتب الصحابى على تأخير اجابته، وفيه استعمال صيغة العموم فى الاحوال كلها. قال الخطابى : فيه ان حكم لفظ العموم أن يجرى على جميع مقتضاه وان الخاص والعام اذا تقابلا كان العام منزلا على الخاص ، لان الشارع حرم الكلام فى الصلاة على العموم ثم استثنى منها اجابة دعاء النبى ﷺ فى الصلاة (وفيه) ان اجابة دعاء النبى ﷺ لا تفسد الصلاة - هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث لاحتمال أن تكون اجابته واجبة مطلقاً سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصل ، اما كونه يخرج لاجابته من الصلاة أو لا يخرج فليس فى الحديث ما يستلزمه ، فيحتمل أن تجب الاجابة ولو خرج المجيب من الصلاة ، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية الخ ما أورده ولا تعرض فيه لما يدعو المرء إليه وهل يشترط لما ذكر أن يكون من أمر الدين أم لا ؟ وقد كان ﷺ دعا سعيداً هذا ليعلمه فضل سورة الفاتحة وانها السبع المثاني، وفي متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلق به بعده ﷺ عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته ﷺ واجبة فى حياته وبعد مماته فيما علم

انه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذى بعثه الله تعالى به كبيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينيـة المتواترة وكذا أقواله المتواترة التى أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية - وأما غير القطعى رواية ودلالة من سنته فهو محل الاجتهاد ، فكل من ثبت عنـده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به فيما دل عليه من الأحكام الخمسة بحسبها - الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة - لأن الأمور العملية الاجتهادية يكتفى فيها بالظن الراجح فى الدليل وفى دلالته ، ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه ، إلا الأئمة أولى الأمر فتجب طاعتهم فى اجتهادهم فى أحكام المعـاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لاقامة الشرع وصيانة النظام العـام - وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الامصار ، ومن كلامهم : ان المجتهد لا يقلد مجتهداً ، وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً دينه ، ولكن من عرض له أمر يستفتى فيه من يطمئن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة ويأخذ بفتواه إذا اطمأن لها . وقد امتنع الإمام مالك من إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من الزام النـاس العمل بكتبه حتى الموطأ الذى هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها

أما من يقولون إن النبى ﷺ إنما كانت تجب طاعته فى عهده ولا يجب العمل بهديه إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام ، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسى به فى كل زمان إلى يوم القيامة ، بل نقول : اننا نهتدى بخلفائه الراشدين ، وأئمة أهل بيته الطاهرين وعلماء أصحابه العاملين ، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الامصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين ، نهتدى بهم فى آدابهم واجتهاداتهم القضائيـة والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ، ولا نسمى شيئاً منها ديناً ندين الله به الا

ما ثبت فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم ، وأما السنن والارشادات النبوية فى أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لانه تشريع لم يأذن به تعالى ، وقد فصلنا هذه المسألة من قبل فى هذا التفسير وفى غيره من مقالات المنار

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ هـذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علماً يقيناً إذعانياً لمـا لهما من الشأن فى مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الانسانية العليا التى فيها سعادة الدنيا والآخرة (الأول) ان من سنة الله فى البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبـه ، الذى هو مركز الوجدان والادراك، ذى السلطان على ارادته وعمله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه ، إذا غفل عنهـا وفرط فى جنب ربه ، كما انه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح الله فيها ، فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبلغها فى التعبير ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التى تعرف دقائقها بمـا تثمره من الخوف والرجاء ، فبينا زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوى الردى ، إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعزع الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغى على الرشاد . فيطيع هواه ، ويتخذه إلهه من دون الله ، (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليـه وكيلا ؟) على أنه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكا فى شهواته وهوه، تاركا لهداه وطاعة ربه ، فنزل يوماً فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة للتنزه ومعهم النبيذ والمعازف ، فبيناهم يعزفون ويشربون ، إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إذا الشمس كورت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة ، فاستمع له وأنصت ، حتى إذا بلغ قوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) امتلأ قلبه خشية من الله ، وتدبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود من العازف

فكسره وألقاه فى دجلة ، وثنى بنبذ قنانى النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يردّد الآية ، وعاد إلى منزله تائبا من كل معصية ، مجتهداً فى كل مايستطيع من طاعة

فقد كبر الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى فى الارادات والأعمال ، وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان و إذعان ، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان ، وهما أن لايأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته و يعجب بنفسه ، وأن لا ييأس العاصى والمقصر فى الطاعة من روح الله ، فيسترسل فى اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياه . ومن لم يأمن عقاب الله ، ولم ييأس من رحمة الله ، يكون جديراً بأن يراقب قلبه ، و يحاسب نفسه على خواطره ، و يعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على صراط العدل المستقيم ، متجنبة الافراط والتفريط ، و يتحرى أن يكون دائما بين خوف يحجزه عن المعاصى ورجاء يحمله على الطاعات ، و يساعدنا على ذلك (الأمر الثاني) وهو أن تذكر حشرنا إليه عزوجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الأليم ، و إما بالنعيم المقيم ، وهذا منه مقتضى الفضل ، وذلك أثر العدل ،

ومما يؤيد مافهمناه فى هذا المقام مقام حرمان الراسخين فى الكفر من سماع الفقه والهدى ، والحيلولة بين المرء وقلبه أن يعصى الهوى (٤٥:٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون) فهى صريحة فى أن من هذا حاله ليس مجبوراً عليه ، وأن الله لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره و يفضله ، أو بإكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له ، فانه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه ، وقد قال تعالى لنبيه داود عليه السلام (٣٨: ٢٦ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية

فهذا نص فى أن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله ، فقوله فى آية الجاثية (وأضله الله على علم) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالا كما يدعى بعض المتكلمين بل هو داخل فى سنته تعالى فى الأسباب والمسببات و يؤيده

إثبات كون ضلاله على علم وهو أنه متعمد لاتباع الهوى ، مؤثراً له علي الهدى ، والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة و إليه تعالى تارة من حيث إنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات . ومن الأسباب ماجعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم ، وما جعله بأسباب لا يعلم للخلق اختيار فيها ولا علم ، وكل من القسمين يسند إلى سببه تارة و إلى رب الأسباب تارة والجهة مختلفة معروفة ، ويختار هذا أو ذاك فى البيان بحسب سياق الكلام ، كقوله تعالى فى الحرث (أفرأيتم ماتحرثون * أأنتم تزرعونه ، أم نحن الزارعون؟) فهل يقول عاقل إن الفلاح لافعل له ولااختيار فى زرعه ، وأن الله يخلقه له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه فى أرضه سواء ، وتلقيحه لنخله وعدمه سيان ؟

وجملة القول : أن من سننه تعالى فى البشر أن من يتبع هواه فى أعماله و يستمر على ذلك و يمسنه الزمن الطويل تضعف إرادته فى هواه حتى تذوب وتفنى فيه ، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولاالمعقولة ، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب ، والصمم والعمى والبكم كما تقدم آنفا وسبق مثله فى تفسير سورة البقرة وغيرها ،

وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لادمان تلك الأعمال الاختيارية ، كالخمار الذى يعترى مدمن الخمر ، فيشعر بفتور وألم عصبي لايسكن إلا بالعودة إلى الشرب ، على أن هذه الآية علمتنا عدم اليأس

ومن تفسير القرآن بالقرآن فى تقليب القلوب والحيلولة بينها و بين إرادة الانسان المتصرفة فى قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الأنعام (٦:١٠٩ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فيراجع معناها فى آخر تفسير الجزء السابع ، وقال الراغب : تقليب الله القلوب صرفها من رأى إلى رأى . وذكر آية الأنعام هذه

ومن تفسير الآية المأثور فى السنة مارواه ابن مردويه فى تفسيرها عن ابن عباس مرفوعاً « يحول بين المؤمن و بين الكفر ، و بين الكافر و بين الهدى » وسنده ضعيف

كما قال الحافظ فى الفتح وله ولغيره آثار فى هـذا المعنى . وروى البخارى وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث عبد الله بن عمر قال « كانت يمين النبي ﷺ لا ومقلب القلوب » وفى رواية له عنـه « أكبرُ ما كان النبي ﷺ يحلف : لا ومقلب القلوب » وفى معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره وللمفسرين وشراح الأحاديث أغلاط لفظية ومعنوية فى تفسير لفظ القلب وفى تقليب الله تعالى له . وقد تقدم تفسيره اللفظى من قبل ، ومعنى تقليبه آنفاً ، وقولهم ان الله خالق القلوب ومقلبها حق ، وكذا أفعال العباد كلها، وليس بحق ما عبر به بعضهم عن ذلك بأن الله تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الإيمان وغيره من أفعال الخير مباشرة ، ويخلق فى قلبه ولسانه الكفر اعتقاداً ونطقا خلقا أنُفاً لا فعل له فيه ، فالجمع بين الآيات التى أوردناها وما فى معناها يبطله ويثبت الاسباب الاختيارية ، والقائلون بما ذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية ، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون ، ويمدهم إخوانهم الصوفية فى الغيّ ثم لا يقصرون .

بعد هذه الأوامر والنواهى الخاصة بأعمال الناس الاختيارية الشخصية، وما يخشى أن تؤدى إليه مما يحرمهم من الهداية الخصوصية ، بانتهاء الاختيارى منها إلى ما يكاد يخرج عن الاختيار ، باضعاف الإرادة واستعبادها للاهواء ، -- أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التى تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلى بنـاره فعلا ، وبين المؤاخذ به لتقصيره فى درئه ، وإقراره على فعله ، فقـال

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أى واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التى من شأنها أن تقع بين الأمم فى التنازع على مصالحها العـامة من الملك والسيادة أو التفرق فى الدين والشريعة ، والانقسام إلى الأحزاب الدينيـة كالمذاهب ، والسياسية كالحكم ؛ فان العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها فى الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مراراً ، ولهذا عبر هنا بالفتنة ، دون الذنب والمعصية، والفتنة البلاء والاختبار كما تقدم بيانه مراراً .

روى أحمـد والبزار وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال : قلنا للزبير «يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقـال إنا قرأنا

على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنـة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وروى عنه جمهور مخرجى التفسير المأثور : لقد قرأناها زمانا ومانرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن عنه قال: لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ وماظننا اننا خصصنا بها . قال الحافظ فى الفتح وأخرجه النسائى من هذا الوجه نحوه ، وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبرى وغيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر فى الآية قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير — وعبد بن حميد عنـه قال : أما والله لقـد علم أقوام حين نزلت أن يستخص بها قوم . وهو وأبو الشيخ عن قتـادة قال : علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أن سيكون فتن . وابن جرير وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : نزلت فى أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وآخرون عنه قال : اخبرت انهم أهل الجمل . وابن أبى حاتم عن الضحـاك قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هى (يحول بين المرء وقلبـه) حتى يتركه لايعقل . وروى جمهورهم عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين أن لايقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

قال الحافظ ولهذا الأثر شاهد من حديث عدى بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنـكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينـكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصـة والعامة » أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبى داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدى وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره .

وهذه الروايات متفقة صحيحة المعـانى إلا قول من قال بالتخصيص فهى عامة إلى يوم القيامة لانها بيان لسنة من سنن الله تعـالى فى الأمم والملل كما بينا . وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التى اختلفت فيها الآراء فاختلفت الأعمال من أهل الحل والعقد فخلا الجو للمفسدين من السبئين واعوانهم من زنادقة اليهود

والمجوس وغيرهم ، وأعقبت فتنة الجمل وصفين ، ثم فتنة ابن الزبير مع بنى أمية ثم قتلهم الحسين عليه السلام الخ. ولو تداركوها كما تداركها أبو بكر (رض) فتنة الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة لايزال المسلمون مصابين بها ومعذبين بعذابها وأكبرها فتن الخلافة والملك وفتن افتراق المذاهب

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن خالف سننه فى الأمم والأفراد التى لاتبديل لهـا ولا تحويل ، ولمن خالف هداية دينه المزكية للأنفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفاسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع . وهـذا العقاب منه مايقع فى الدنيا والآخرة ، ومنه مايقع فى إحداهما فقط ، سواء كان للأفراد أو للأمم ، وعقاب الأمم المذكور فى هذه الآية مطرد فى الدنيا ، وأول من أصابه من أمتنا الاسلامية أهل القرن الأول الذى كانوا خيرها بل خير الأمم كلهـا ولكنهم لما قصروا فى درء الفتنة الأولى عاقبهم الله عليها عقابا شديداً كما تقدم آنفا ، وهكذا تسلسل العقاب فى كل جيل وقع فيه ذلك ، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الأمة وأدومها ، فزالت الخلافة التى تنازعوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتقاتلوا لأجلها ، ولم تزل هى، بل تزداد قوة وشبابا ، وقد شرحنا هذا الموضوع فى مواضع من مجلة المنار

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ قيل إن الخطاب للمهاجرين يذكرهم بما كان من ضعفهم وقلتهم بمكة — وقيل إنه للمؤمنين كافة فى عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعف أمتهم العربية فى جزيرتهم بين الدول القوية من الروم والفرس ، ولا مانع فيه من إرادة هذا وذاك معاً . فقوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أى تخافون من أول الاسلام إلى وقت الهجرة أن يتخطفكم مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب ، أى أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم — كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم . قال تعالى فى أهل الحرم (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس

من حولهم ؟) ﴿فآواكم﴾ يامعشر المهاجرين إلى الانصار ﴿وأيدكم﴾ و إياهم ﴿بنصره﴾ فى هذه الغزوة ، وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم فى كتابه بالاجمال و بينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه ، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله (و إذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد)

وقد جاء فى الدر المنثور من تفسير هذه الآية بالمأثور باختصار قليل مانصه:

أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية ، قال «كان هذا الحى أذل الناس ذلا وأشقاه عيشاً وأجوعه بطونا ، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم لا والله مافى بلادهم مايحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله مانعلم قبيلا من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل»

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (يتخطفكم الناس) : فى الجاهلية بمكة (فآواكم) إلى الاسلام، وأخرج أبو الشيخ و أبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يارسول الله : ومن الناس ؟ قال «أهل فارس» وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فآواكم) قال إلى الانصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال يوم بدر ا هـ

ومن العبرة فى الآيات أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الاسلام إصلاحا أورث و يورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة ، ولكن أعداءه الجاحدين لهذا على علم قد شوهوا تاريخه ، وصدوا الناس عنه بالباطل ـ وان أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه ، ثم صاروا

يقلدون أولئك الاعداء فى الحكم عليه حتى زعموا أنه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذى كان عقوبة من الله تعالى لخلفهم الطالح على تركه، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه. فالى متى إلى متى أيها المسلمون؟ إنا لله و إنا اليه راجعون

(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قد بينا وجه التناسب بين هذه النداءات الالهية للمؤمنين وما قبلها وما بعدها إلى آخر هذا الجزء. وورد فى سبب نزول هذا النداء بالنهى عن الخيانتين هنا من حديث جابر «أن أبا سفيان خرج من مكة — وكان لايخرج إلا فى عداوة الرسول (ص) والمؤمنين — فأعلم الله رسوله بمكانه، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم. فأنزل الله (لاتخونوا الله والرسول) الآية» والمراد أن فيها تعريضاً بفعلة المنافق الذى يدعى الإيمان بأن عمله خيانة تنافيه. والخيانة للناس وحدهم من أركان النفاق كما ثبت فى الحديث الصحيح — وسيأتى — فكيف بمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين؟

وفى عدة روايات عن عبد الله بن قتادة والزهرى والكلبى والسدى وعكرمة أنها نزلت فى أبى لبابة (رض) فإنه كان حليفاً لبنى قريظة من اليهود، فلما خرج اليهم النبى (ص) بعد إجلاء إخوانهم من بنى النضير أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ — وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبى (ص) فأشار اليهم أبو لبابة بأن لايفعلوا وأشار إلى حلقه يعنى أن سعداً يحكم بذبحهم، فنزلت الآية. قال أبو لبابة «مازالت قدماى حتى علمت انى خنت الله ورسوله» وفى رواية عبد بن حميد عن الكلبى أن

رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة الى بنى قريظة وكان حليفا لهم ، بل روى أنه كان وضع ماله وولده عندهم ، فأومأ بيده الى الذبح ، فأنزل الله الآية ـ وذكرها ثم قال ـ فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبى لبابة « أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ فقالت : إنه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله » والمراد أن النبى ﷺ شك فى إيمانه حتى إنه سأل امرأته : هل يقوم فى بيته بواجبات الإسلام ؟ فأجابته بصيغة التأكيد التى يجاب بها من أظهر شكه ، وفيه عبرة لمنافقى هذا الزمان الذين يخلصون الخدمة ويسدون النصيحة الى أعداء ملتهم وأوطانهم فيما يمكن لهم السلطان فى بلادهم والسيادة على أمتهم

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة الى الله تعالى «شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي ـ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده» وغزوة بنى قريظة كانت بعد غزوة بدر التى نزلت فيها سورة الأنفال بسنين فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية فى أبى لبابة أنها تتناول فعلته — وهذا التعبير يكثر مثله عنهم فيما يسمونه أسباب النزول ، كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره . ومن ذلك قول المغيرة بن شعبة : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان (رض) ويحتمل أن تكون الآية نزلت بعد نزول السورة فألحقت بها بأمر الله لرسوله ﷺ

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشتمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقضها . رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

والخيانة فى أصل اللغة تدل على معنى الاخلاف والخيبة بنقض ما كان يرجى ويؤمل من الخائن أو نقص شيء منه ينافى حصوله وتحققه . ومنه : خانه سيفه ، إذا نبا عن الضريبة . وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشى ، وخان الرشاء الدلو إذا انقطع . ومن معنى النقص أو الانتقاص فى المادة قوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون

أنفسكم) أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات، ومثله التخون، ويفترقان فى معنى الصفة، قال الزمخشرى فى الأساس: وتخون فلان حقى إذا تنقصه كأنه خانه شيئا فشيئا، وكل ماغيرك عن حالك فقد تخونك، قال لبيد *تخونها نزولى وارتحالى* اه وقال فى تفسير الآية من الكشاف وتبعه غيره: معنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل فى ضد الامانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه اه وما قلناه أولا أعم من هذا وأشمل لما ورد من الاستعمال فى كلام الله وكلام العرب. وقال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان الخ ماقاله وهو يدخل فى عموم ماقلناه، ولا يصح كونه حدا تاما

والمعنى ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدى حدوده وانتهاك محارمه التى بينها لكم فى كتابه ﴿والرسول﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو آراء مشايخكم أو آبائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم، بناء على زعمكم انهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ أى ولاتخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية، فقد ورد فى الحديث «المجالس بالأمانة» رواه الخطيب من حديث على وحسنوه وأبو داود عن جابر بزيادة «إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق» وهو حسن أيضاً، وروى أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه والضياء من حديث جابر أيضا «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة» ورواه أبو يعلى عن أنس، وأشار فى الجامع الصغير إلى صحته. فافشاء السر خيانة محرمة ويكفى فى العلم بكونه سراً القرينة القولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد؟ أو الفعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجىء. وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ مايكون بين الزوجين

الخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، وقال أنس بن مالك «قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: لاإيمان لمن لاعهد له، ولادين

لمن لاعهد له » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه . وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة ان النبى ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وقد ورد فى الأحاديث إطلاق الأمانة على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان ، وليس المراد بهذا الحصر ، بل كل مايجب حفظه فهو أمانة ، وكل حق مادى أو معنوى يجب عليك أداؤه إلى أهله فهو أمانة . قال الله تعالى فى سورة البقرة (٢ : ٢٨٣ فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه) وقال فى سورة النساء (٤ : ٧٥ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها)

وقد أوردنا فى تفسير آية النساء هذه مباحث نفيسة فى الأمانات والعدل منها (المسألة الثالثة) فى أنواع الأمانة (والمسألة السادسة) فى حكمة تأكيد الأمر بالأمانة . وأوردنا فى هذه ماقاله حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى فى بيان كون الأمانة من الصفات الدينية التى قام عليها بناء المدنية وبها حفظ العمران ولا صلاح لحال أمة ولا بقاء لدولة بدونها لأن عليها مدار الثقة فى جميع المعاملات [1] وناهيكم بما عظم الله من أمر الأمانة فى قوله (٣٣ : ٧١ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا)

وأما قوله ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فمعناه والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها وسوء عاقبة تلك المفاسد فى الدنيا والآخرة ، أو تعلمون أن مافعلتموه خيانة لظهوره ، وأما ماخفى عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل ، أو استفتاء القلب ، كفعلة أبى لبابة التى كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقفه (رض) . ولما كان حب الأموال والأولاد مزاولة فى الخيانة أعلمنا به عقب النهى عنها فقال

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فتكون فى الاعتقاد والأقوال والافعال والاشياء يمتحن الله المؤمنين والكافرين ، والصادقين والمنافقين ، ويحاسبهم

«١» فيراجع ذلك كله فى ص ١٧٣ — ١٧٩ من ج ٥ تفسير

ويجزيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر ، وقد تقدم الكلام فى الفتنة مراراً من وجوه . وفتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذى فهم إلا أن الافهام تتفاوت فى وجوهها وطرقها ، فأموال الانسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف فى كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه فى القصد والاعتدال ، ثم انه يتكلف العناء فى حفظها ، وتتنازعه الأهواء المتناوحة فى انفاقها ، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقا مقدرة وغير مقدرة ، ومعينة وغير معينة ، ومحصورة وغير محصورة ، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم ، وكفارات بعض الذنوب المعينة ، من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك . ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة ، ويترتب عليها شىء عظيم من الأجر والثواب . والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس السماحة والسخاء من أركان الفضائل ، ولجميع أنواع الامساك البخل وهو من أمهات الرذائل ، ولكل منهما درجات ودركات .

وأما الأولاد فهم كما يقول الادباء : ثمرة الفؤاد وأفلاذ الاكباد ، وحبهم كما قال الأستاذ الإمام : ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم فى قلوب الأمهات والآباء ، يحملهما على بذل كل ما يستطاع بذله فى سبيلهم من مال وصحة وراحة وغير ذلك ، بل روى أبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا إلى سيد الحكماء وخاتم الأنبياء ﷺ « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » فان كان سنده ضعيفاً كما قالوا فمتنه صحيح ، فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام فى سبيل تربيتهم والانفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم : يحملهما ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة ، أو الملة والأمة ، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة ، والحقوق الثابتة ، دع صدقات التطوع والضيافة ، كما يحملهما الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى والاعتراض عليه وغير ذلك من المعاصى كنوح الامهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ، ففتنة الاولاد لها جهات كثيرة فهى أكبر من فتنة الأموال وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية . فالرجل يكسب الحرام

ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك لكبائر شهواته ، فاذا قلت شهواته فى الكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى فى نفسه الحرص على شهوات أولاده ، وما يكفى الواحد لا يكفى الآحاد ، وفتنة الأموال قد تكون جزءاً من فتنة الأولاد ، فتقديمها وتأخير فتنة الأولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من الحلال ، وانفاقه فى سبيل الله من البر والاحسان واتقاء الحرام من الكسب والانفاق ، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة مايتعلق منها بالمال وغيره مما يشير إليه الحديث ، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنيبهم أسباب المعاصى والرذائل ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

وقد عطف على هذا التحذير قوله ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على مايجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إيثار ماعند الله عز وجل من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه فى الأموال والأولاد ووقف عند حدوده وتفضيله على كل ماعساه يفوته فى الدنيا من التمتع بهما ، لعلهم يتقون مثل هفوة أبى لبابة حين حذر أعداء الله ورسوله من فتح حصنهم والنزول على حكم سعد بن معاذ ، لما كان له من الاعتماد عليهم فى حفظ ماله وولده ، على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبى لبابة فى توبته النصوح ، إذا ألم به ضعف فوقع فى مثل هفوته أو ما دونها من خيانة ، وأين مثل أبى لبابة رضى الله عنه فى ذلك ؟ ونحن نرى كثيراً ممن يدعون الايمان يخونون الله ورسوله فى انتهاك حرمات دينهم ويخونون أمتهم ودولتهم بثمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم ـ وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم — أو خوفاً على مالهم وولدهم من سلطانه قبل أن يستقر له السلطان ، وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم دول الأرض قوة وبأسا بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها ومن الأجانب حتى مسخت فصارت دويلة صغيرة فقيرة ، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرب يدعون أنها إنما أسقطها تعاليم الإسلام القويمة ، لأنها صارت قديمة ، ولو أنهم أقاموا واجبا واحدا أو أدبا واحداً من آداب القرآن ، لكان كافياً لوقايتها من الزوال .

(٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين فى هذا السياق وهى أعمها ، والأصل الجامع لها ولغيرها ، وكلمة « الفرقان » فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى فى مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها فى أصل اللغة : الفصل بين الشيئين أو الأشياء والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها ، ولذلك فسروه بالنور ، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور فى العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال إلى حيز التفصيل ، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلى الذى يميز بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات ، من الحسيات والمعنويات ، ويبين كل شىء من ذلك ويعطيه حقه الذى يكون به ممتازاً من غيره . و إيراد الأمثلة على ذلك يطول فيشغل عن القدر المحتاج اليه فى تفسير لفظ « الفرقان » إلا أن نترك عوالم المادة وقواها ونأتى بمثال من اللغة لأن لفظ الفرقان من مفرداتها ، فنقول إن العامى يعلم من اللغة أمراً إجمالياً وهو أنها ألفاظ يعبر بها الانسان عما يحتاج إلى بيانه من علمه ، ومن العلم التفصيلى فيها ما هو مبين فى علم النحو والصرف وفى علوم المعانى والبيان والبديع والوضع والاشتقاق وأصول الفقه ـ كالعام والخاص والمطلق والمقيد من الأخير مثلا — وأنت ترى أنك بهذا البيان الوجيز لمعنى الفرقان قد اتضح لك من دلالته على العلم الصحيح والحكم الرجيح ما كان خفياً ، وفصل منها ما كان مجملا ، ولذلك نعده من تفسير اللفظ لا استطراداً أجنبياً ، ولا سيلا أتياً ، كالذى يأتيه أكثر المفسرين من مباحث النحو وفنون البلاغة وغيرها .

وكما يكون الفرقان فى مسائل العلوم وموادها من طبيعية وعقلية ولغوية ، وفى الموجودات التى استنبطت العلوم منها يكون فى الاحكام والشرائع والاديان ، وفى الحكم بين الناس فى المظالم والحقوق وفى الحروب ، وقد اطلق الفرقان على

أشهر الكتب الالهية وهى التوراة والانجيل والقرآن وغلب على القرآن (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) لأن كلام الله تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الايمان والكفر والحق والباطل ، وفى الاحكام بين العدل والجور، وفى الاعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . وأطلق هذا اللفظ على يوم بدر كما سيأتى فى هذه السورة مع بيان وجهه ومتعلق فصله وتفرقته

فقوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ معناه إن تتقوا الله فى كل مايجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، و بمقتضى سننه فى نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . وقد روى عن بعض مفسرى السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمى الحكمى ،وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل، بما يعز المؤمن ويذل الكافر و بالنجاة من الشدائد فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة . وهذا من الفرقان العملى الذى هو ثمرة العلمى ذكر كل ماراه مناسباً لحال وقته أو حال من لقنه ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوى ، ولا المعنى الكلى الذى هو ثمرة التقوى بأنواعها ، وهذا النور فى العلم الذى لايصل اليه طالبه الا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله فيها (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب) فهو كعهد الله فى إمامة الناس بالحق لاينال الظالمين لأنفسهم بالتقليد لغيرهم لاحتقارها فى جنب إطرائهم لمقلديهم، بل هم لايطلبونه ولا يقصدون الوصول اليه لأنهم صدقوا بعض الجاهلين فى ادعائهم اقفال بابه ، وكثافة حجابه بل أصحابه هم الأئمة المجتهدون فى الشرع والدين والواضعون للعلوم التى تنفع الناس، وكان لشيخنا الاستاذ الامام حظ عظيم منه

أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه باتقائه و باتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصى و باتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم وتقدم فى وصايا هذا السياق ـ و باتقاء الفشل والخذلان فى الحرب ، وباتقاء ظلم النساء ،وبين ان العاقبة فى إرث الأرض

للمتقين، كما أن الجنة فى الآخرة للمتقين، وقال (٦٥ : ٢ - ٤ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه - ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وأمثال ذلك فى التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير ، فمعنى التقوى العامة اتقاء كل ما يضر الإنسان فى نفسه وفى جنسه الإنسانى القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن ولذلك قال العلماء : إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصى وفعل ما يستطاع من الطاعات وزدنا على ذلك اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى فى الكون كالنصر على الأعداء وجعل كلمة الله هى العليا فى الأرض كما هى فى الواقع ونفس الأمر ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى كذلك. وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى فى الإنسان مجتمعاً ومنفرداً كما أرشد اليه فى آيات من كتابه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التى يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التى تعرض له من علم وحكم وعمل ، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه ، وبين ما ينبغى فعله وما يجب تركه ، وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى كالفتن فى السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم ، فكل متق لله فى شىء يؤته فرقانا فيه وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم فى الارض حتى فى عهد الفتح . قال بعض حكماء الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم ، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس، المؤهلة لها للاصلاح فى الأرض ، بل مع انغماسهم فى السكر والفواحش ، لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا فى دنياهم بفساقهم وفجارهم ، وإنما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾ هذا عطف على (يجعل

لكم فرقانا) أي و يمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود اليها المؤدى الى الاصرار المهلك ، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبي والايجابي جزاء للتقوى وأثرا لها

(٣٠) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

هاتان الآيتان وما بعدهما تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه معه في مكة كما سبقت الاشارة الى ذلك وقد حسن هذا التذكير بذلك في أول العهد بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين ، الفاتنين المفتونين ، الصادين عن سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة

قال عز وجل ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ أي واذكر أيها الرسول في نفسك ، مانقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك ، لانه حجة لك على صدق دعوتك ، ووعد ربك بنصرك - اذكر ذلك الزمن القريب الذي يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك . بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الايقاع بك ﴿ ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ فأما الإثبات فالمراد به الشد بالوثاق والارهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم الى الاسلام وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التي لايكون ضررها فيهم عظيما وهو مابينته الرواية الآتية عنهم ، وأما الاخراج فهو النفي من الوطن ، وقد روى كبار مصنفي التفسير المأثور أن أبا طالب قال للنبي ﷺ : ما يأتمر به قومك ؟ قال :

يريدون أن يسجنونى أو يقتلوني أو يخرجونى . قال من حدثك بهذا ؟ قال ربى . قال نعم الرب ربك ، فاستوص به خيراً . قال : أنا أستوصى به ؟ بل هو يستوصى بى » فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) ولهذا قال ابن جريج : إن الآية مكية ، وهو قول ضعيف كما تقدم فى الكلام على نزول السورة فى أول تفسيرها والصحيح أن التشاور فى الأمور الثلاثة بدار الندوة كان عقب موت أبى طالب وخديجة رضى الله عنها ، وكان الخروج للهجرة فى الليلة التى أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتى بيانه ، ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل إجماعه وإرادة الشروع فيه الذى وقع بعد موت أبى طالب فبلغه فسأل النبى ﷺ عنه .

وأما قوله تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة فى معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها فى مكة ، ولذلك لم يقل « ويمكرون بك » أى وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم ، إلى حيث مهد له فى دار الهجرة ، ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين ، لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله ، وخذل للباطل وإذلال لأهله ، وإقامة للسنن ، وإتمام للحكم ، وقد بينا حقيقة المكر فى اللغة فى تفسير قوله تعالى (٣ : ٥٤ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفى تفسير (٧ : ٩٨ أفأمنوا مكر الله) الآية وخلاصته أن المكر هو التدبير الخفى لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب ووقاية الممكور له من المكروه كذلك . والغالب فى عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، ولذلك تأول المفسرون ما أسند إلى الله تعالى منه ، فقالوا فى مثل هاتين الآيتين — آية الأنفال وآية آل عمران — إنه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والحق ان المكر منه الخير والشر والحسن والسيء — كما قال تعالى (٣٥ : ٤٣ استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ومن الدعاء المرفوع « وامكر لى ولا تمكر علىّ » رواه أبو داود ويراجع تفسير آية آل عمران من الجزء الثالث وتفسير آية الأعراف من الجزء التاسع .

وأما قصة مكرهم الذى ترتب عليه هجرة المصطفى ﷺ وظهور الاسلام وخذلان الشرك ففيها روايات أوفاها رواية ابن اسحاق فى سيرته وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وأبو نعيم والبيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس (رض) بألفاظ متقاربة ، ننقل ماأورده السيوطى فى الدر المنثور منها عنه قال :

« إن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم منى رأى ونصح ، قالوا أجل فادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم فى أمركم بأمره ، فقال قائل : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير ونابغة ، فانما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدى لا والله ماهذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا فى غير هذا الرأى ، فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه فإنه إذا خرج لم يضركم ماصنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه فإنه إذا خرج لم يضركم ماصنع وكان أمره فى غيركم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن اليه ثم ليسيرن اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى لارأى غيره ، قالوا : وما هذا ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى القول ما قال الفتى لاأرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك فى الخروج وأمرهم بالهجرة وافترض عليهم القتال فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون ـ الآية) فكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل فى الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (و إذ يمكر بك الذين كفروا) الآية» اه وسائر خبر الهجرة معروف

ثم ذكر تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم فرددوها فعزيت إليهم على الإطلاق وهى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ المنزلة فى القرآن ، الذى يعجز عن مثله الثقلان ، فيما أودع من علم وحكمة وتشريع وقصص و بيان ، وماله من التأثير فى نفس كل إنسان ، بقدر ما أوتى من بلاغة وعقل وقلب ووجدان ﴿ قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بنى عبد الدار وعلل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وقوله ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى قصصهم وأحاديثهم التى سطرت فى الكتب على علاتها، وما هو بوحى من عند الله تعالى . قال المبرد فى أساطير : هى جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث وفى القاموس: الأساطير الأحاديث لا نظام لها جمع أسطار وأسطير وأسطور و بالهاء فى الكل . وأصل السطر الصف من الشىء كالكتاب والشجر اه . قال المفسرون وكان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم و يمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والانجيل، كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال انه يستطيع أن يأتى بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله : ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة ، وان محمداً ﷺ هو الذى افتراها ، فانهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم، ومنهم النضر بن الحارث ، وقد قال تعالى فى ذلك (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بل كانوا يوهمون عامة العرب أنه اكتتبها وجمعها كما فى آية الفرقان (٢٥ : ٥ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى ليحفظها ولم يكن كبراء مجرمى قريش ولا أهل مكة يعتقدون هذا أيضاً

فإنهم كلهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً ، بل تشاوروا في شيء يقولونه ليصدوا به العرب عن القرآن فكان هذا القول منه ، وقد كذبهم الله تعالى فيه فما استطاعوا له اثباتاً وكان النضر بن الحارث من أشدهم كفراً وعناداً ، وحرصاً على صد الناس عن القرآن ، وقد روى عنه أنه هو الذي نزل فيه قوله تعالى (٣١ : ٦ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) إذ اشترى قينة جميلة كانت تغني الناس بأخبار الأمم وغير ذلك لصرفهم عن سماع القرآن إليها وهو الذي نزلت فيه الآية التي بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها وهي الدالة على منتهى الجحود والعناد على قول بعض الرواة

وهذا القول الذي قاله النضر لا يدل على أنه كان يرى من نفسه القدرة على معارضة القرآن في أسلوبه أو بلاغته وتأثيره ، وهو من بلغاء قريش إذ لو قدر لفعل لانه كان من أحرصهم على تكذيبه ، بل هو طعن في أخبار القرآن عن الرسل لتشكيك العرب فيه وصرفها عنه ، وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا « افتراه » وقد يكون بعضهم اعتقد ذلك إذا كان نفي الله لتكذيبهم إياه خاصاً ببعضهم كالوليد بن المغيرة الذي قال لأبي جهل والاخنس وغيرهما حين دعوه لتكذيبه : إن محمداً لم يكن يكذب على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ وقد شمل التحدي بالقرآن هؤلاء المفترين عن اعتقاد أو غير اعتقاد إذ قال في سورة يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أي بسورة مثله مفتراة كما صرح بالوصف في سورة هود فقال (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) الخ وبينا الفرق بين هاتين الآيتين وآية سورة البقرة في التحدي عند تفسير هذه الأخيرة (راجع ص ١٩٢ و ١٩٣ من الجزء الأول تفسير)

ولقد كان زعماء طواغيت قريش كالنضر بن الحارث هذا وأبي جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالاعراض عن سماع القرآن ، كما يمنعون الناس منه ثم يختلفون أفرادا إلى بيت النبي ﷺ ليلا يستمعون إليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على العقول والقلوب ، وكان يلتقي بعضهم ببعض أحيانا فيتلاومون ويؤكد بعضهم لبعض القول بعدم العود إلى ذلك ، ومما كان من تأثير استماعهم أن قال الوليد بن المغيرة

فيه كلمته المشهورة فى وصفه ومنها «أنه يعلو ولا يعلى، وأنه يحطم ماتحته» فخافوا أن تسمعها العرب فما زالوا يلحون عليه فى قول كلمة منفرة تؤثر عنه حتى إذا ماأقنعوه بوجوب ذلك أطال التفكير والتقدير والنظر والتأمل والعبوس والتقطيب حتى اهتدى إلى الكلمة المأثورة عن جميع مكذبى الأنبياء فى تسمية آياتهم سحراً فقال: سحر يؤثر ـ وقد تقدم بيان هذا فى بحث الاعجاز من تفسير آية البقرة فى التحدى.

---

(٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٣) وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤) وَمَا لَهُمْ
أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ
أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بعد أن بين تعالى مكر قريش بالنبى ﷺ بين ما يدل على أن سببه الجحود والعناد فقال

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فى صحيح البخارى أن قائل هذا أبو جهل. قال الحافظ فى شرحه من الفتح: الظاهر أنه أبو جهل وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم، وقد روى الطبرانى من طريق ابن عباس أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، قال فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع) وكذا قال مجاهد وعطاء والسدى، ولا ينافى ذلك ما فى الصحيح لاحتمال أن يكونا قالاه ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى، وعن قتادة قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها. اهـ وقال القسطلانى فى شرحه له: وروى أن النضر بن الحارث لعنه الله لما قال (إن هذا إلا أساطير الأولين) قال النبى ﷺ «ويلك، إنه كلام الله» فقال هو وأبو جهل

(اللهم إن كان هذا) الخ وإسناده إلى الجمع إسناد مافعله رئيس القوم إليهم اه
والمعنى : اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد ﷺ فافعل بنا كذا وكذا - أى أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، لأنه نزل على محمد بن عبدالله الذى يلقبونه بابن أبى كبشة ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب أليم آخر يأخذهم على اتباعه ، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتوّ وعلو فى الأرض ، لا لأن مايدعوهم إليه باطل أو قبيح أو ضار ، وروى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ فقال : أجهل من قومى قومك حين قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا فاهدنا له » اه وما يحكيه القرآن من أقوال المشركين وغيرهم قد يكون بالمعنى دون نص اللفظ ، كما هو المعتاد بين الناس ، وقد يكون نظمه مع أدائه للمعنى بدون إخلال مما يعجز المحكى عنهم عن مثله ، وقد يتعين هذا فى الكلام الطويل الذى يتحقق بمثله الاعجاز

قال تعالى رداعليهم ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ أى وما كان من شأن الله تعالى وسننه ، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته ، أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم ، وهو إنما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة لا عذابا ونقمة ، بل لم يكن من سننه أيضا أن يعذب أمثالهم من مكذبى الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولا كما قال ابن عباس ﴿وما كان الله معذبهم﴾ هذا النوع من العذاب السماوى الذى عذب بمثله الأمم فاستأصلهم أو مطلقاً ﴿وهم يستغفرون﴾ أى فى حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار روى الشيخان من حديث أنس قال أبو جهل (اللهم إن كان هذا هو الحق) - الآية - فنزلت (وما كان الله معذبهم) إلى قوله (ومالهم ألا يعذبهم الله) الآية قال الحافظ فى شرح الحديث من الفتح روى ابن جرير من طريق يزيد بن رومان أنهم قالوا ذلك ثم لما أمسوا ندموا فقالوا غفرانك اللهم فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن معنى قوله (وهم يستغفرون) أى من سبق له من الله أنه يؤمن . وقيل المراد من كان بين أظهرهم حينئذ

من المؤمنين ، قاله الضحاك وأبو مالك ويؤيده ما أخرجه الطبري من طريق ابن أبزى قال « كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقي من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية . فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي توعدهم الله تعالى » وروى الترمذي من حديث أبي موسى رفعه قال « أنزل الله على أمتي أمانين » فذكر هذه الآية قال « فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار » وهو يقوي القول الأول والحمل عليه أولى وان العذاب حل بهم لما تركوا الندم على ما وقع منهم وبالغوا في معاندة المسلمين ومحاربتهم وصدهم عن المسجد الحرام والله أعلم اه ما أورده الحافظ ، ويرد عليه ان الله عذبهم بالقحط لما دعا به عليهم النبي ﷺ كما ثبت في الصحاح حتى أكلوا الميتة والعظام ولم يرتفع إلا بدعائه ﷺ ولا يندفع إلا بتفسير العذاب الممتنع مع وجود الرسول والاستغفار بعذاب الاستئصال . ويؤيده أن ما عذب الله به قوم فرعون كان مع وجود موسى عليه السلام فيهم كما تقدم في سورة الأعراف والآيات نزلت مع السورة بالمدينة

وأما قوله تعالى ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أي وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم عادون عذاب الاستئصال عند زوال المانعين منه بعد والحال انهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للنسك ، قيل المراد به صدهم النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية سنة ست والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين ، والمنع كان واقعاً منذ الهجرة ، ما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فان دخل مكة عذبوه إذا لم يكن فيها من يجيره . والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورءوس الكفر فيهم ، ومنهم أبو جهل ، وأسر سراتهم لا أفتح مكة كما قال الحافظ — بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه ، وقد وضعوا على ظهر الرسول ﷺ فرث الجزور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة عليها السلام — ومنعوا أبا بكر من

الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلى فيه ويجهر بالقرآن فصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة فخافوا عليهم أن يهتدوا إلى الاسلام . وقد تقدم خبره فى ذلك وإجارة ابن الدغنة له ثم اضطراره إلى رد جواره وهو من حديث الهجرة فى البخارى (راجع ص ٥٥٥)

﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أى مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسدهم فيه كطوافهم فيه عراة الأجسام رجالا ونساء، ولما أجاب الله دعاء أبيهم ابراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماماً لهم، أجابه الله تعالى بأن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين، وأى ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك؟ (إن الشرك لظلم عظيم) وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء[1] فقال تعالى ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا . وهذا غاية التأكيد فانه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الاطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدوهم وخيارهم لا من لا فضل لهم فى أنفسهم ، وانما يدعون حق الولاية بأنسابهم . وقيل ان الضمير فى الموضعين لله تعالى أى ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببى منع العذاب والحال انهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم ؟ وكأن سائلا يسأل : من أولياؤه تعالى إذاً ؟ فأجيب بصيغة الحصر بالاثبات بعد النفى : ما أولياؤه إلا المتقون أى الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم، وتقدم ما يدل عليه هذا الاطلاق فيها من التفصيل فى تفسير آية (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وما هى ببعيد . والقول الأول أقرب فى هذا

(١) من العبر أن بعض شرفاء مكة الذين كانوا يتولون الحكم فيها إلى عهد قريب قال هذا القول الشركى الجاهلى بعينه فى الأسكندرية معبراً عن عقيدة أهل بيته بمناسبة ذكر ما كان من منعهم لأهل نجد من أداء فريضة الحج، ونقل قوله مراسل بعض جرائد القاهرة من الاسكندرية فى حديث له معه ، فكان انتزاع الله منهم الولاية على البيت بأيدى من كانوا يصدونهم عنه وهم أهل نجد كما سبق للنبى ﷺ والمؤمنين مع طغاة قريش الأولين . وقد آن للمتعالين بالإنساب أن يفقهوا أن غرورهم بها مخالف للقرآن والوجدان والجنان وطبع هذا الزمان .

السياق والثاني أخص ويؤيده فى حد ذاته قوله تعالى (١٠: ٦٢ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٣ الذين آمنوا وكانوا يتقون) و يجوز الجمع بينهما

﴿ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ أنه لاحق لهم فى الولاية على هذا البيت ولا سيما بعد ظهور الاسلام ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين ، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الابراهيمى وقد أبطله الظلم ، و بقوتهم فى قومهم و إن كانت إلى ضعف ، أو لايعلمون أنهم ليسوا أولياء الله عز وجل ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه ، بمقتضى عدله فى خلقه ، والحقيقون بالولاية على بيته ، على ماأعد لهم من الثواب والنعيم بفضله ، كما صرحت به آياته فى كتابه ، وقد أسند هذا الجهل إلى أكثرهم إذ كان فيهم من لايجهل سوء حالهم فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم ، وكونه لايرضى الله تعالى ، فان امتنع رؤساؤهم من الاسلام كبرا وعنادا ، فقد كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة ، و يتربص الفرصة لاظهاره بالاستعداد للهجرة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، وللتفاوت فى الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة والناس يطلقون الحكم فى مثل الحال التى كانوا عليها على الجميع و يقولون إن القليل لاحكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده؟ ولكن الله تعالى لايخفى عليه شىء ولا يقول إلا الحق ، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم ، هو من دقائق القرآن فى تحرير الحق ، وهو مكرر فى مواضع من عدة سور ، وسبق تنبيهنا لهذا فى تفسير ماتقدم منها .

هذا و إن جماهير المسلمين فى أكثر بلادهم صاروا فى هذا العصر أجهل من مشركى قريش فى ذلك العصر بمعنى ولاية الله وأوليائه ـ سواء فى ذلك ولاية الحكم والسلطان وهى الامامة العامة ، وولاية التقوى والصلاح ، وهى الامامة الشخصية الخاصة ، وجهلهم بهذه أعم وأعمق ، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين ترتع الحشرات فى أجسادهم النجسة ، وثيابهم القذرة ، و يسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات ، والدعاوى الباطلة للكرامات ، والشرك بالله بدعاء الأموات ، ومن أدلتهم عليها مايتخيلون من رؤى الأنبياء والاقطاب فى المنام وما يزعمون من تلقيهم عنهم ماتنبذه شريعة المصطفى عليه السلام ، حتى صار ماهم

عليه دين شرك منافيا لدين الاسلام، فعليك بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لشيخ الاسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان ؟

ثم عطف على الحكم عليهم ماهو حجة على صحته وهو بيان حالهم فى أفضل مابنى البيت لأجله وهو الصلاة ، إذ كان سوء حالهم فى الطواف عراة معروفا لايجهله أحد ، أو فى العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقال ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ من المعلوم أن البيت إذا أطلق معرفا انصرف عندهم إلى بيت الله المعروف بالكعبة والبيت الحرام على القاعدة اللغوية فى انصراف مثله إلى الأكمل فى جنسه كالنجم الثريا وهى أعظم النجوم هداية . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق . وقال المكاء : الصفير والتصدية التصفيق، وقال : كان أحدهم يضع يده على الأخرى و يصفر . وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها و يصفقون ، وروى الطستى فيما روى من أسئلة نافع بن الأزرق له أنه قال له أخبرني عن قوله عز وجل (إلا مكاء وتصدية) قال المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلى بين الحجر (الأسود) والركن اليماني - يعنى أنه يتوجه إلى الشمال ليجمع بين الكعبة و بيت المقدس فى الاستقبال - فيجىء رجلان من بنى سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته . قال (نافع) وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول :

تقوم إلى الصلاة إذا دعينا وهمتك التصدى والمكاء

وفى بعض كتب اللغة أن المكاء طائر أبيض، وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبى ﷺ فى الطواف يستهزئون و يصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) وقال الراغب : مكا الطير يمكو مكاء : صفر . وذكر أن المكاء فى الآية جار مجرى مكاء الطير فى قلة الغناء . قال والمكاء (بالضم والتشديد) طائر ، ومكت استه صوتت اهـ . ويحتمل أن هذه الفعلة القبيحة كانت تقع منهم

عمداً أيضا فذكر اللفظ المشترك ليدل عليها ولم يذكر اللفظ الذى وضعها وحدها نزاهة ، وقال فى التصدية : كل صوت يجرى مجرى الصدى فى أن لاغناء فيه اه
وجملة القول أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا بذلك الرسول ﷺ فى طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا

قال تعالى ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فسر الضحاك العذاب هنا بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأسرهم لآخرين منهم يوم بدر أى وانهزام الباقين مكسورين مدحورين . وفيه إشارة إلى قولهم (أو ائتنا بعذاب أليم) كأنه يقول : فذوقوا العذاب الذى طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه .

---

(٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٧) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ

نزل هذا فى استعداد قريش لغزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها بعدها . ويشمل اللفظ بعمومه ماسيكون مثل ذلك من الكافرين فى كل زمن. ذكر رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الأولى نزلت فى أبي سفيان وما كان من انفاقه على المشركين فى بدر ومن اعانته على ذلك فى غزوة أحد وغيرها ، ففي بعض الروايات أنه لما نجا بالعير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال ، فجاءوا كل من كان لهم تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثاراً — ففعلوا . وقال سعيد بن جبير : إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب ، وفيهم قال كعب بن مالك :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن عصابة ثلاث مئين ان كثرنا فأربع

وقال الحكم بن عتيبة فى الآية : نزلت فى أبى سفيان أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا ، هذا على ما كان معروفا من بخل أبى سفيان كما قالت زوجته يوم المبايعة لرسول الله ﷺ

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أى عن الاسلام واتباع خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ﴿فسينفقونها﴾ فى سبيل الشيطان صداً وفتنة وقتالا ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ وندما وأسفا لذهابها سدى ، وخسرانها عبثاً إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ثم يغلبون﴾ المرة بعد المرة ، ويتكسرون الكرة بعد الكرة ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أى يساقون يوم القيامة إليها دون غيرها كما أفاده تقديم الظرف على متعلقه . هذا إذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا عليه ، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما . ومن العبرة فى هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين ، ومن حيث أفرادهم الفوز باحدى الحسنيين (1) هكذا كان فى كل زمان قام المسلمون فيه بحقوق الاسلام والايمان ، وهكذا سيكون ، إذا عادوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالحون . والكفار فى هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن الاسلام ، وفتنة الضعفاء من العوام ، بجهاد سلمى ، أعم من الجهاد الحربى ، وهو الدعوة إلى أديانهم ، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين فى مدارسهم ، ومعالجة رجالهم ونسائهم فى مستشفياتهم . والمسلمون مواتون ، يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ يعنى أن الله تعالى كتب النصر والغلب والفوز لعباده المؤمنين المتقين ، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكافرين للصدّ عن سبيل الله الذى استقاموا عليه ، وجعل هذا جزاء كل من الفريقين

(1) الغنيمة أو الشهادة

ماداما على حالها ، فاذا غيراما بأنفسهما غير الله مابهما . جعل هذا جزاءهما فى الدنيا وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم فى الآخرة ، لأجل أن يميز الكفر من الايمان ، والحق والعدل من الجور والطغيان ، فلن يجتمع فى حكمته سبحانه الضدان ، ولا يستوى فى جزائه النقيضان (٥: ١٠٣ قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب) الخبيث والطيب المعنويان فى حكم العقلاء والفضلاء ، كالخبيث والطيب الحسيين فى حكم سليمى الحواس ولا سيما الشم. وقد سبق لنا تحقيق هذا المعنى فى تفسير هذه الآية من سورة المائدة [١] وفى تفسير (٣: ١٦٩ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب [٢]) قرأ حمزة والكسائى (يميز) بالتشديد من التمييز وقرأها الجمهور بالتخفيف . والمراد بالميز والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لابالعلم فهو بكل شىء عليم ، وهذا التمييز الألهى بين الأمرين فى الاجتماع البشرى يوافق مايسمى فى عرف هذا العصر بسنة الانتخاب الطبيعى وبقاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما . وسنن الله فى الدنيا والآخرة واحدة كما قال أبو حامد الغزالى (رح) وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلون على الشفاعات والمغترون بالالقاب الدينية من كل ملة وأمة. فالخبيث فى الدنيا خبيث فى الآخرة لاينفعه شىء ، ولذلك قال ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا ﴾ أى ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض بحسب سنته تعالى فى اجتماع المتشاكلات ، وانضمام المتناسبات ، وائتلاف المتعارفات ، واختلاف المتناكرات ، يقال ركمه : إذا جمع بعضه إلى بعض ومنه (سحاب مركوم)

﴿ فيجعله فى جهنم ﴾ يجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ التامو الخسران وحدهم ، لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم

جاء مصر القاهرة من عهد قريب صاحب صحيفة سورية دورية من دعاة الالحاد المتفرنجين ، فأقام فيها أياما قلائل استحكمت فيهاله مودة أشهر ملاحدة مصر ودعاة الزندقة والاباحة فيها ، فعاد ينوه بهم ، وينشر دعايتهم ، و يزعم أنهم

«١» راجع ص ١٢٢ ج ٧ تفسير «٢» ص ٢٥٣ ...

دعامة الترقى والعمران ، بالدعاية إلى تجديد ثقافة لمصر تخلف ما كان لها من ثقافة العرب والاسلام ، والحق أن هؤلاء كلهم هدامون للعقائد والفضائل وجميع مقومات الأمة ومشخصاتهم ، وليسوا بأهل لبناء شيء لها ، إلا إذا سميت الزندقة وإباحة الأعراض وتمهيد السبيل لاستعباد الأجانب لأمتهم بناء مجد لهـا . وقد ذكرنى ذلك رجلا من قرية صالحة مر به رجل من معارفه كان فى إحدى المدن فطفق يسأله عن المساجد ومدارس العلم فيها وعن الصالحين من أهلها . فأجابه الرجل : أعن هذا تسأل مثلى ؟ سلنى عن أهل الحانات والمواخير ، فاننى بها وبهم عليم خبير (وكذلك نولى بعض الظالمين بما كانوا يكسبون)

---

(٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وما لهم فى الدنيا والآخرة قفى عليه ببيان حكم الذين يرجعون عنه ويدخلون فى الاسلام ، لأن الأنفس صارت تتشوف إلى هذا البيان وتتساءل عنه بلسان الحال أو المقال ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أى لأجلهم وفى شأنهم ، فاللام للتبليغ . إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله والقتال لأوليائه المؤمنين بالدخول فى الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب ، يغفر الله لهم ذلك فى الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ما يخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ، ولا سالبا أو غانما بسلب أو غنم ، وقرأ ابن مسعود «إن تنتهوا يغفر لكم» بالخطاب روى مسلم من حديث عمرو بن العاص

«قال فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ابسط يدك أبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي قال: مالك ؟ قلت أردت أن أشترط قال : تشترط بماذا ؟ قلت :أن يغفرلي ، قال:أ ماعلمت ياعمرو أن الإسلام يهدم ماكان قبله وأن الهجرة تهدم ماكان قبلها وأن الحج يهدم ماكان قبله ؟ » ﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى العداء والصد والقتال ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ أى تجرى عليهم سنته المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقاتلوهم ، وقال مجاهد : فى قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك، أقول وهى السنة التى عبر عنها بمثل قوله (٥٨ : ٢٠ ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ٢١ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز) وقوله (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) فاضافة السنة إلى الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم

﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ أى وقاتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لأجل تركه ، كما فعلوا فيكم عند ماكانت لهم القوة والسلطان فى مكة حتى أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم فى دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره له فيتقلده تقية ونفاقا ـ ونقول ان المعنى بتعبير هذا العصر : و يكون الدين حراً ، أى يكون الناس أحراراً فى الدين لايكره أحد على تركه اكراها ، ولا يؤذى و يعذب لاجله تعذيبا ، ويدل على العموم قوله تعالى (٢ : ٢٥٦ لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وسبب نزول هذه الآية أن بعض الانصار كان لهم أولاد تهودوا وتنصروا منذ الصغر فأرادوا إكراههم على الاسلام فنزلت فأمرهم النبى (ص) بتخييرهم، ولكن المسلمين انما يقاتلون لحرية دينهم ، إن لم يكرهوا عليه أحداً من دونهم، وما رضى الله ورسوله فى معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التى اشترطها المشركون إلا لما فيها من الصلح المانع من الفتنة فى الدين المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين وأسماعهم القرآن إذ كان هذا إباحة للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم انها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخولهم فى

الاسلام بعدها . وسمى الله هذا الصلح فتحاً مبينا . وأما ورود الحديث بقتل المرتد فله وجه آخر من منع العبث بالاسلام كان له سبب سياسى اجتماعى بيناه فى موضعه

هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية وتاريخ ظهور الاسلام، وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك قال ابن كثير وكذا قال أبو العالية ومجاهد والسدى ومقاتل وزيد بن أسلم . أقول: عليه جمهور مؤلفى التفاسير المشهورة من الخلف قالوا وقاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الاديان الباطلة فلا يبقى إلا الاسلام ولذلك قال بعضهم: لم يجىء تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدى ، فانه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلا على ماروى عن أبى عبد الله (رض) كتب هذا الآلوسى وهو لا يصح أصلا ولا فرعا ، ويؤيد الأول ماروى البخارى عن عبد الله بن عمر «أن رجلا جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ماذكر الله فى كتابه (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) إلى آخر الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال يا ابن أخى أعيّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلىّ من أن أعير بهذه الآية التى يقول الله تعالى فيها (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الى آخرها . قال فان الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن فى دينه ، اما يقتلوه وإما يوثقوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة» الخ فابن عمر رضى الله عنهما يفسر الفتنة فى آية الانفال هذه بما قلنا إنه المتبادر منهما ويقول: إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا فان الشرك لم يكن قد زال من الأرض ولن يزول (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية

وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير فى تفسير الآية وزاد عليها روايات عنه أخرى بمعناها منها «أنه جاءه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد صنعوا ماترى وانت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله (ص) فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعنى أن الله حرم علىّ دم أخى المسلم . قالا أولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟)قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون ان تقاتلوا حتى تكون فتنة و يكون الدين لغير الله » وفى رواية زيادة «وذهب الشرك» وذكر

أيضاً أن رجلا أورد الآية على أسامة بن زيد وسعد بن مالك (رض) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وهذا وماقبله من رواية ابن مردويه فى تفسيره وقال محمد بن اسحق: بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لاتكون فتنة) حتى لايفتن مسلم عن دينه .

﴿فان انتهوا﴾ أى فان انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿فان الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم عليه بحسب علمه . وقرأ يعقوب (تعملون) بالتاء الفوقية بالخطاب . وفى سورة البقرة (٢ : ١٩٣ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ﴿وان تولوا﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ أى فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿نعم المولى، ونعم النصير﴾ هو، فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

فان قيل : إن انتصار المسلمين فى القرون الأولى كان لأسباب اجتماعية فلما تغيرت هذه الأسباب خانهم النصر حتى فقدوا أكثر ممالكهم ، وإننا لنرى الأمم ينتصر بعضها على بعض بالاستمداد المادى من سلاح وعتاد بالنظام الحربى الذى جهله المسلمون بغرورهم بدينهم واتكالهم على خوارق العادات ، وقراءة الأحاديث والدعوات ، ولذلك تركه ساسة الترك وأسسوا لأنفسهم حكومة مدنية إلحادية تناهض الإسلام ، ويوشك أن يتبعهم ساسة المصريين والافغان .

قلنا : إن ماذكره المعترض - وهو واقع لامفروض - حجة على المسلمين المتأخرين لاعلى الإسلام ، فالإسلام يأمر باعداد القوى المادية ويضيف إليها القوى المعنوية، ومنها بل أعظمها الإيمان بالله ودعاؤه والاتكال عليه باتفاق العقلاء حتى الماديين منهم، ولم يشرع للناس الاتكال على خوارق العادات ، حتى فى أيام الرسول المؤيد بالآيات البينات ، ولما غُلب المسلمون فى وقعة أحد لتقصيرهم فى الأسباب وتعجبوا من ذلك أنزل الله تعالى (أَوَلما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقد وفينا هذا البحث حقه فى تفسير هذه الآية وأمثالها من الآيات التى نزلت فى تلك الغزوة من سورة آل عمران وسنعود إليه فى تفسير آية (وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة) وغيرها من هذه السورة قريباً إن شاء الله تعالى .

وما أضعف الترك والمصريين وغيرهم من شعوب المسلمين إلا تركهم لهداية القرآن في مثل هذا وغيره من اقامة العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح ، واستبداد حكامهم فيهم ، وانفاق أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الاسراف في شهواتهم ، وقد اتبع الأفرنج تعاليم الإسلام في الاستعداد للحرب وفي غير ذلك من سنن الله في العمران ، فرجحت بهم كفة الميزان ، وسيتبعونها في الأمور الروحية ، بعد أن تبرح بهم التعاليم المادية والبلشفية ، ويتفاقم فسادها في أممهم ، حتى تخرب بيوتهم بأيديهم ، من حيث فقد المسلمون الجغرافيون النوعين كليهما من تعاليمه ، وقام الجاهلون منهم يحتجون عليه ، بما أفسدوا وابتدعوا فيه ونسبوه إليه ، وهو حجة عليهم وعلى جميع الخلق .

وأما الأمور الاجتماعيــة التي مكنت سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من الشعوب فهي أكبر حجة للاسلام أيضاً ، إذ ليست تلك الأمور إلا ما كان أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب ، ومساوىء الاخلاق والعادات ، من فشو الفواحش والمنكرات ، وسلطان البدع والخرافات ، التي جاء الإسلام لازالتها ، واستبدال التوحيد والفضائل بها ، ولهذا وحده نصرهم الله على الأمم كلها ، إذ لا خلاف بين أهل العلم والتاريخ في أن العرب كانوا دون تلك الشعوب كلها في الاستعداد الحربي المادي ، فلم يبق لهم ما يمتازون به إلا اصلاح الإسلام المعنوي . ولما أضاع جماهير المسلمين هذه العقائد والفضائل ، واتبعوا سنن تلك الأمم من البدع والرذائل — وهو ما حذرهم الإسلام منه — ثم قصروا في الاستعداد المادي للنصر في الحرب ففقدوا النوعين منه ، عاد الغلب لغيرهم عليهم .

فنسأله تعالى هداية هذه الأمة ، وكشف ما هي فيه من غمة ، لتستحق نصره باتباع شرعه ، ومراعاة سننه في خلقه ، وبتقواه المثمرة للفرقان في العلوم والأحكام والأعمال ، فيعود لها ما فقدت من الملك والسلطان اللهم آمين .

﴿ تم تفسير الجزء التاسع كتابة وتحريراً بفضل الله وحوله وقوته ﴾

(في أواخر شهر شعبان سنة ١٣٤٦ ونسأله الاعانة والتوفيق لاتمام ما بعده)

ولله الحمد والشكر أولا وآخراً

obeikandl.com

فهرس

الجزء التاسع

من

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

يراعى فى هذا الفهرس : —

١ — أنه قد روعى الترتيب الهجائى فى الكلمة الثانية والثالثة وقدم المعرف وأهمل اعتبار واو العطف وحرف الجر

٢ — أن الأصفار التي عن يسار الأرقام تشير إلى إتمام أو إعادة المعنى فى الصفحة التالية أو ما بعدها

٣ — أن الترتيب على حسب النطق لا المادة

(تنبيه) أرقام عدد الآيات فى الشواهد تختلف باختلاف عد المصاحف فمن لم يجد الآية موافقة لمصحفه وجدها بالقرب من عدده

الطبعة الثانية : أصدرتها دار المنار ١٣٦٧ هـ

obeikandl.com

فهرس عام للجزء التاسع من تفسير المنار

صفحة

(ا)

الآخرة . كونها خير للمتقين من الدنيا ٣٨٣
« والدنيا . الفرق بينهما ١٥٥
آداب قراءة القرآن والاستماع له ٥٥٣
آدم . روايات إسناد الشرك إليه وإلى حواء وتسمية أولادهما برأى الشيطان ٥٢١
الآل . معناه واستعماله وآل فرعون ٨٥
آل فرعون : أخذهم بالسنين وما كان من تطيرهم بموسى فى الشر واعتقادهم استحقاق الخير لذواتهم ٨٤ إرسال الطوفان والجراد والقمل الخ عليهم ٨٩ استغاثتهم بموسى أن يدعو ربه يكشف الرجز عنهم وإقسامهم ليؤمنن به ونكثهم والانتقام منهم بإغراقهم ٩٣ إصرارهم على كفرهم بعد رؤية الآيات ٨٨
آلهة فرعون ٧٩
الآيات الالهية ، التفكر فيها ٤٠٩
« التسع التى أيد بها موسى ٩٢
« التى استدلوا بها على رؤية الرب وعلى نفيها ومجال التأويل فيها ١٣٤ــ١٣٧
« فى الاحتجاج على المشركين ٥٦٠
« فى الرسالة والرسل ٥٦٥
« فى عموم بعثة خاتم النبيين ٣١٦
« فى كون الدين سببا لسعادة الدنيا ٢٤
« فى نبز الكفار الرسل بالجنون ٤٥٣

صفحة

الآيات الكونية للرسل ٥٦٥
« المتشابهة والفروق بينهما ٥٤٢
« الناطقة بأن القرآن عربى ولسان عربى وحكم عربى ٣١٤
« لا تقتضى إيمان مقترحيها ٣٣
آيات القرآن وأمثاله فى صفات أهل النار ٤٢٧
« الله فى خلقه ٥٧٣
« « « « فى ميثاقه على ربوبيته ٣٩٩ — ٤٠٢
آية أخذ الميثاق على ذرية بنى آدم ٣٨٦
« أصول الآداب والشرائع ٥٣٢
« (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) واضطراب المفسرين فيها ٥٢٠
« (وإنه لفى زبر الأولين) وخطأ من زعم أن معناها إن معانى القرآن فى تلك الكتب بلغتها فهى فيه باللسان العربى وفى التوراة مثلا باللسان العبرانى ٣٣٩
« (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) تفسيرها بما لا نظير له فى الكتب ٤١٨
ابتلاء الله الأمم تربية لها ٣٨٢
ابليس . عداوته للبشر وأبيهم ٥٧٤
ابن جريج . كونه شر المدلسين ٣٦٥
ابن عباس . روايته عن كعب الأحبار ٥٠٦
ابن عربى . قوله فى رؤية الرب ١٦٧

obeikandl.com

صفحة

ابن القيم تحقيقه تفسير آية الميثاق ٣٩٥-٤٠٤
« كلامه فى نور الكشف والنور الالهي والحجب والتجلى ونور الذكر ١٦٨
ابن الام ، النداء به ٢٠٨
أبو بكر تأثير قراءته فى المشركين واضطهاده لأجلها ٥٥٥
« حاله مع الرسول فى الغار وبدر ٦٠٣
ابو جاد . الاستدلال به على عمر الدنيا ٤٧٤
أبو هريرة . روايته عن كعب الأحبار ٥٠٦
الاثبات المفيد للنفى وعكسه ١٣٦
الاجماع على وجوب تعلم العربية على المسلمين ٣١٠
الأحاديث . وضع زنادقة اليهود والفرس وغيرهم لها ٥٠٦
« الادراج فيها واشتباه المدرج بالمسند ٥٠٦
« رواية أكثرها بالمعنى وكونها من أسباب التعارض فيها ٥٠٦
« رواية الصحابة والتابعين لها وعدم تفرقهم بين المسموع وغيره فى التعبير كما فعل المحدثون بعدهم ٥٠٦
« الصحيحة فى أشراط الساعة ٤٨٣
« فى أخذ ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين ٣٨٩-٣٩٤
أحاديث الفتن وأشراط الساعة . قواعد فى التفصى من تعارضها ومشكلاتها ٥٠٤-٥٠٧
إحقاق الحق وإبطال الباطل فى بدر ٦٠١

صفحة

أحمد . تكفيره لبعض منكرى الرؤية ١٣٥
الاختيار والانتخاب وما فى معناهما ٢١٥
الأخذ . استعماله بمعنى التعذيب والعقاب ٨٥
الأخلاق . تأثيرها فى الأمم ١٠٨ و٣٠٩
« شدة فسادها فى هذا الزمان ٥٤٨
الادراك والمدارك والمدركات ١٦٥
الأديان . ألقابها لا قيمة لها عند الله تعالى ٣١
الاذنان . كفر نعمتهما ٤٢٦
الأرض المباركة ميراث بنى إسرائيل فالعرب ٩٨-١١٣
الأسباب . طلب المنافع ودرء المضار من طريقها دون الأوهام والخوارق المجهولة والخرافات ٤٢٢
أسباط بنى إسرائيل ٣٦٥
الاستثناء لما شاء الله ٥٠٨
استثناء ما شاء الله من نفى المحال عادة أو شرعا ٦
الاستدراج الالهي بالسنن والأسباب ٤٥١
الاسترقاء . منافاته للتوكل ودخول الجنة بغير حساب ٤٢٢
الاستعاذة بالله من الشيطان ٥٤١
استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ٥٦١
الاسرائيليات الخرافية فى ألواح موسى ١٩٠
« فى عمر الدنيا (راجع الدنيا)
« فى قصة بلعام ٤١٤
« فيمن اختارهم موسى للميقات ٢١٦
الأسف . حقيقة معناه ٢٠٦

صفحة

الاسلام . إبطال الترك له من حكومتهم وتركهم لشريعته تعليما وعملا وحكما واستبدال قوانين أوربة بها ٣١٧
« إحلاله الطيبات لبنى إسرائيل وتحريمه الخبائث عليهم ٢٢٨
« إرشاده لأسباب ارتقاء الأمم فى الحضارة والملك وإضاعة مسلمي القرون الأخيرة لذلك علما وعملا حتى ظنوا ضده ١٨
« أعظم قوة معنوية فى الأرض ٢٢
« أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ٢٢٧
« التعليم الفاسد الذى أضاعه ١٩
« تعظيمه لشأن العلم والعقل ٥٧٠
« توحيده للشعوب بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ليكونوا إخوانا لا يفرقهم شيء ٢١٧
« توقف إقامته بالعلم والعمل والوحدة على العلم بلغته العربية ٣١٠و٣١٧
« توقف الكمال البشرى فى الامم عليه ٢٢و٦٦٧
« حقيق باحياء مدنية الشرق وإنقاذ مدنية الغرب ٢٢
« الدعوة اليه بترجمة القرآن ٣٤٤
« سبب انتشاره فى العرب وفى العجم ٣٤٥
« المصلح للبشر ٦٤٩
« هو الدين الذى يتفق مع العلم والمدنية ٢٣
« وجوب الدعوة اليه وما تتوقف عليه

صفحة

فى هذا الزمان ٣٠٢و٣٠٨
الاسلام يجب ماقبله من ذنوب الكفر كلها ٦٦٤
أسماء الله الحسنى . أخذها من القرآن ٤٣٤
« الالحاد فيها وأنواعه ٤٤٠
« توقيفية ٤٤٣
« حصرها فى ٩٩: ٤٣٣ و٤٣٧
« دعاؤه بها ٤٣١
الأشعرية . رد الجوينى من أئمتهم على شيوخه وغيرهم منهم فى تأويل الصفات وإثباته لحقية مذهب السلف ١٨٠
الأصنام . كونها لاتنفع عابديها بل هى دونهم ٥٢٥-٥٢٨
إصلاح ذات البين . الأمر به ٥٨٧
الاصلاح العملى . منجاة للأمة من الهلاك الدنيوى ولو مشركة ٢١
أطباء الأرواح والأخلاق ٥٤٩
أطوار الخلق ١٤١
أعاجم المسلمين وعناية قدمائهم بالعربية ٤١٧
الاعراض عن الجاهلين ٥٣٧
الافرنج . تماديهم وسعة علومهم العمرانية وعظمة ملكهم بها وسوء استعمالها وحربهم الاخيرة وما يتهددهم من خطر المادية والشهوات التى لا منجاة منها إلا بدين القرآن ٢٠
الالحاد باشراك غير الله بما هو خاص به من أسمائه الحسنى ٤٤٧

صفحة

الإلحاد بإشراك غير الله في الكمال الذي
كانت به أسماؤه هي الحسنى ٤٤٨
« بإشراك غير الله في معاني الخاص به
منها ٤٤٨
الإلحاد بتحريفها كتحريف صفاته ٤٤٦
الإلحاد بترك تسميته بما سمى به نفسه ٤٤٥
الإلحاد بتسميته بما لم يسم به نفسه ٤٤٢
الإلحاد . معناه واشتقاقه ٤٤١
الإله . حقيقة معناه وغلط الرازي فيه
١١١ — ١١٣
الآلوسي . تأويله لكعب الأحبار
كبرى مفترياته على التوراة ١٩٠
الله هو الولي الذي يتولى الصالحين ٥٣٠
إمامة الأعجمي واللحان في الصلاة ٣٤١
الأمانات . أنواعها وخياناتها ٦٤٣
الأمر بالباطل أو المنكر تمهيداً لإبطاله ٦٥
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٢٧
الأمر بمعنى الإدلاء بالرأي ٦١
الأمم ، آجالها ٥٧٦
الأمم . ابتلاؤها بالحسنات والسيئات
تربية لها ٣٨٢ و ٥٧٦
الأمم . اعتبارها بما حل بغيرها ٢٦
الأمم ، إهلاكها بظلمها ٥٧٦
الأمم . بقيتها الصالحة الناهية عن الفساد
هي حفاظها من الهلاك ٢٠
الأمم . عقابها بذنوبها ٥٠٩ و ٣٧٥
٣٧٧ و ٣٨١ و ٦٣٨

صفحة

الأمة المحمدية إنذارها بتاريخ الأمم قبلها ٢٦
الأمة المحمدية . وصفها ٤٤٩
أمة الدعوة وأمة الإجابة ٤٥٠
الأمن من مكر الله تعالى ٢٧
الأنبياء المرسلون عبيد الله لا وزراء له ٥١٥
أنبياء بني إسرائيل ، إخبارهم عن المستقبل
٢٣١
« انتظارهم بعثة محمد منذ القرون
الأولى ٢٨٠
الأناجيل ، تبديل أسماء الأعلام فيها ٢٤٧
« المتروكة والمفقودة ٢٩٩
الإنجيل ، إخباره عن مجيء النبي معرفا
باللام ٢٣٥
« أصله والأناجيل الحاضرة ٣٠٩
الإنسان ، تفضيله على عوالم الأرض ٥٧٤
« وحشي ملكي لا يكمل إلا بالإسلام ٢٢
الأنعام ، كون بعض الناس أضل منها ٤٢٨
الإنفاق في سبيل الله ٥٩٤
الأنفال ولمن هي ٥٨٦
الأنوار المعنوية ١٧٠
أهل السنة ، حجتهم في مسألة الرؤية ١٥١
أهل الكتاب ، تأويلهم للبشارة بالمسيح
وبمحمد ٢٣٨
« ترجمتهم لأسماء الأعلام ٢٤٥
« تعودهم تحريف كتب الأنبياء عمداً ٢٤٩
« تناقلهم خبر بعثة نبينا ٢٣٠ و ٢٨٠
« زيادتهم في كتب الأنبياء بالتفسير ٢٤٥

صفحة

أهل الكتاب ، سريان الوثنية اليهم ٣٠٨
أهل النار ، آيات وأمثال فى صفاتهم ٤٢٧
« الصفات المعدة لهم للعذاب فيها من عقلية وحسية ونفسية ، وجملتها الجهل وعدم استعمال نعم الله من العقل والحواس فيما يرقيهم بالعلم والعمل وغلبة الصفات البهيمية واستحواذ الغفلة عليهم ٤٢١ـ٤٣١
أوربة ، كلمة سبنسر فى فسادها وتوقع هلاكها بالافكار المادية والتنازع على سلطان العالم وكلمة سياسى سويسرى فى ذلك ٢١
الأولياء ، كون عبادتهم بدعائهم واستغاثتهم كعبادة الأصنام ٥٢٦
الايمان ، أصوله الثلاثة ٣٠١
« بجميع الصفات بلا تشبيه ولا تعطيل ١٨٣
« بالقرآن ٤٥٨
« تركه مع رؤية الآيات المثبتة له ١٩٧
« زيادته بتلاوة القرآن ٥٩٠
« سبب لنعم الأرض وبركاتها ٥٧٧
« فقد الاستعداد له ٣٣
« معنى امتناعه من المطبوع على قلوبهم ٣٣
« المستلزم للطاعة وصفة أهله ٥٨٨
« والتقوى مفتاح لبركات الدنيا ٢٤
« وكماله بصفة الصبر واقتضاؤه الثبات فى الحرب ٧٧
الايمان اليقينى تعذر الرجوع عنه ٦

صفحة

﴿ ب ﴾

بابل ، سحر أهلها وعلومهم وعبادتهم ٥٠
الباطنية ، تركهم الاسلام بالتأويل ١٣١
البدع ، مجاراة الحكومات للامم عليها ٩٦
البدع ، ذل أصحابها وغضب الله عليهم ٢١٢
برهان التمانع ١١٧
بسمارك (البرنس) كلمته فى تأثير الدين فى شجاعة الحرب وكونه ضروريا للبشر ٧٨
البشارة الأولى بنبينا من التوراة وبيانها من عشرة أوجه ٢٥١ـ٢٥٩
« الثانية به منها ـ الخامسة ٢٥٩ـ٢٦٤
« السادسة به من الزبور ٢٦٥
« ١٣ـ١٨ من الانجيل ٢٧٠ـ٢٧٧
بشارة انجيل برنابا به ٢٩١
بشارة النبى حجى به ٢٩٨
بشارات الكتب الالهية بنبينا صلى الله عليه وسلم ٢٣٠
البشارة بالمسيح وبالنبى مبهمة ٢٣٤
البشر استعداد أبدانهم وأرواحهم لفتك جنة الفساد بها ومناعة كل منهما وحصانته منها ٥٤٤ و ٥٤٧
البشر ، تصرفهم فى مادة الكون ١٦٦
البشر ، تفضيل بعضهم على بعض ٥٩٥
البشر ، تنافسهم فى أعلى العلم ١٥٠
البشر ، خلقهم من نفس واحدة واستعدادهم لمعرفة الله وتفضيلهم على عوالم الأرض وعداوة الشيطان لهم ٥٧٤ خيارهم الناهون عن الفساد فى الأرض ٢٠

صفحة

البشر ، شؤونهم العامة ٤٤٩
البشر ، ضلالهم وعمههم فى طغيانهم ٤٥٩
البشر عجزهم عن معرفة حقائق الكون ١٧٣
البشر ، منة الله عليهم بنعمه ٥٧٥
البصر ، الخطأ فى إدراكه ٥٢
بعث الرسل وإرسالهم (الفرق بينهما) ٣٨
البعث والاعادة ٥٦٧
بلعام بن باعورا ، قصته واختلاف الروايات والاسرائيليات فيها ٤٠٩-٤١٦
بولس ، طعن علماء المسلمين فيه ٢٥٠
بنو آدم ، أخذ الرب ذريتهم من ظهورهم وإشهادهم على أنفسهم أنه ربهم ٣٨٦
بنو إسرائيل ، أسباطهم الاثنى عشرة ٣٦٥
الاصر والاغلال التى رفعها الاسلام عنهم ٢٢٨ أمرهم بأخذ أحسن التوراة ١٩٢ إنجاؤهم من آل فرعون ١٠٥ إيراثهم الارض المباركة ٩٧ تجهل موسى لهم ١١٠ تخويفهم بوقوع الجبل بهم ١٩٤ تسخير الغمام والمن والسلوى لهم ٣٦٨ تفضيلهم على العالمين ١١٥ تمردهم على موسى ١٠٥ ، ١١٠ رفع الجبل فوقهم ٣٨٥ ظلمهم لأنفسهم ٣٧٠ عظمة ملكهم بإقامة شريعتهم وضده ١٩٥ عقاب الله لهم ٣٧٧ قصة اتخاذهم للعجل ٢٠٠ ما أحله الاسلام لهم وما حرمه عليهم ٢٢٨ المبالغة فى عددهم فى التيه ٣٦٧ مجاوزة البحر بهم وطلبهم من موسى أن يجعل لهم

صفحة

إلهاً ١٠٥ مسخهم قردة ٣٧٩ وجود طائفة تهدى بالحق والعدل منهم ٣٩٣ وعدهم بإراءتهم دار الفاسقين ١٩٣ وعيد فرعون لهم بالابادة ٧٩ وعيدهم بمن يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ٣٨٠

(ت)

تاريخ اليهود ، العبرة به ١٩٤
تأويل أهل السنة كغيرهم ١٤٩ و ١٥٢
تأويل تجلى الرب فى الصور ١٤٥
تأويل المتكلمين للصفات ١٧٩
التأويل والتشبيه والتعطيل ١٣١ و ١٨١
« المقتضى للكفر والمانع منه ١٣٥
تجلى الرب للجبل وجعله به دكا ١٢٣
التحليل والتحريم الدينى لله وحده ٥٦٠
ترجمة القرآن ، الخام تركى ادعى امكانها ٣٤٨
« بالانكليزية لبعض الهنود ، وإفتاء شيخ الأزهر بعدم جواز إدخال المصحف المطبوعة معه فى القطر المصرى وإفتاء مفتى بيروت بمثل ذلك ومنع حكومة مصر وحكومة سورية من إدخاله فى القطرين ٣٣٧
« ردشبهات من أباحها ٣٣٨-٣٤٩
« مباحث مهمة فى حكم الترجمة وتعذرها ومفاسدها وغرض ملاحدة الترك من الاقدام عليها فى هذا العصر وهو الارتداد عن الاسلام ٣١٤-٣٣٦

صفحة

ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير العربية وأقوال الفقهاء المذاهب فيها ٣٣١
الترف والفسق مهلكة للأمم ٢٠-٢٣

﴿ الترك الكماليون ﴾

إجبار حكومتهم الناس على لبس البرنيطة وقتلها للمعارضين لذلك تدينا ٣٦٦ إحياؤهم للعصبية الجنسية الجاهلية معارضة للجامعة الاسلامية وعداءها ٣٢٠ استنكار رئيسهم مصطفى كمال باشا للقسم بالتين والزيتون لجهله والرد عليه بتفسيره ٣٥٨ اقتراحهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية واستعدادهم لتنفيذه ٣١٨ إلغاؤهم لخلافتهم وتأليفهم جمهورية لادينية أوربية العادات والتشريع وإبطالهم شريعة الاسلام تعليما وعملا وحكما واباحتهم للردة عن الاسلام واستحلال محرماته ٣١٧ أمر حكومتهم بجعل خطبتى الجمعة والعيدين بالتركية تمهيداً لخلع ربقة الاسلام ٣١٣ أول من ترجمه لهم نصرانى سورى وتبعه حسين كاظم بك وآخرون وانتقاد مجلة سبيل الرشاد التركية لهم ٣٥٥ تصديهم لترجمة القرآن وتأثيره السيء فى مصر ٣١٩ ترجمتهم للقرآن بالتركية تمهيدا للمروق من الاسلام ومحوه من قلوب شعبهم ٣١٨ حقدهم على الاسلام وآدابه ولغته ٣١٨ نشرهم كتاب (قوم جديد) المراد به إنشاء شعب تركى غير إسلامى وما فيه من الكفر والفساد ٣٢٢ نموذج من

صفحة

ترجمتهم للقرآن بالتركية وما فيها من الخطأ والغلط ٣٥٣
الترك العثمانيون . صدعهم لوحدة الاسلام بجعل لغتهم لغة الدولة الاسلامية دون لغة الاسلام العربية ٣١٧
الترك : نصيحتنا لهم بما فيه سيادة الدنيا وسعادة الآخرة (وماهم لها بأهل) ٢٢
التشريع الدنيوى والدينى وكون هذا حق الله وحده ٥٦١ و٥٦٩
« العام إنما يثبت بما كان قطعى الرواية والدلالة ١٥٧
« وغيره من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم ٣٠٣
تشكل الملائكة والجن ١٦٢
تعارض النصوص فى رؤية الرب ودقائق اللغة والاحتمال فيها ١٣٦
التعاليم المادية مفاسدها وشرورها ٣٠٩
التعزير ، أصل معناه واستعماله ٢٢٩
تفسير (إلى ربها ناظرة) ١٣٦
« (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم) ١٥٥
« (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت) ٦٢٠
« (لاتدركه الابصار) لنا ولابن تيمية ١٣٦
« (يوم يكشف عن ساق) ١٤٤
التفكر الامر به وكونه يقتضى العلم بأن الرسول ليس بمجنون ٤٥٥
« فى الآيات والعبر فيها ٤٠٩، ٤١٦
« معناه وفوائده ٤٦٠

صفحة

التقليد . إفساده للفطرة وإزالته الاستعداد
للعلم والإيمان لمن أصر عليه ٠٣٢
« بطلان بنائه على عظمة الشيوخ ٠١٧٩
« تحريمه ٥٧٠
التقوى ، الأمر بها ٥٨٧
« العامة ، أنواعها في القرآن وتحقيق
القول في الدنيوي والديني منها ٦٤٨
التكبر بغير الحق وغوائله ١٩٧
تكليم الرب لموسى ٥٦١

﴿ ج ﴾

الجاهلون بالنعم والسنن ، عقابهم ١٦
الجبر ، بطلانه بنصوص الكتاب والسنة ٦٣٥
جبريل ، رؤية النبي له في صورته ١٦٣
الجرائد السفيهة في هذا العصر ٥٣٧
الجزاء في الآخرة بالعمل والميزان ٥٦٨
الجزاء في الآخرة عين العمل ١٩٩
جزاء كملة المؤمنين عند ربهم ٥٩٤
« المفترين على الله في الدنيا كالمبتدعة ٢١٢
الجن ٤١٨
الجنة : أعلى نعيمها لقاء الله ١٥١
« دخولها بالعمل رحمة من الله ٢٠٥
الجهل بسنن الله في الأمم ١٨
جهنم ، صفات أهلها من الجهل بالحقائق
وتعطيل الحواس والمشاعر وكونهم
أضل من الأنعام وكونهم هم الغافلين
عن أسباب سعادة الانسان ٤٢١

صفحة

﴿ ح ﴾

حجاب الله (النور) المانع من رؤيته ١٣٩
الحجب بين العبد والرب ١٤١
حجر الزاوية محمد ﷺ ٢٧٥
حجر موسى الذي انبجس منه الماء ٣٦٧
حجة الله على جملة الأمة فيما كلفها ١٥٧
حديث أعددت لعبادي الصالحين ١٥٥
« أنتم أعلم بأمر دنياكم ٣٠٤
« الجساسة في الدجال ومشكلاته ٤٩١
« رأيت نوراً ١٤٠
« عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن
فقد أعظم على الله الفرية ١٣٩
« « في الهجرة ٥٥٥
« لله دون العرش ٧٠ حجابا ١٤٢
« نور أنى أراه ١٤٠
حرب المدنية الكبرى مفاسدها ٣٠٩
الحروف المقطعة في أوائل السور ،
الاستدلال بها على عمر الدنيا ٤٧٤
الحق والباطل في غزوة بدر ٦٠١
الحق انغلب له على الباطل ٤٠
حقيق على كذا بدل حقيق به ٤٢
حكمة عدم النص على رؤية الرب ١٥٨
الحكومة المصرية ، مجاراتها للعوام على
البدع والخرافات كالموالد ٩٦
الحلاج ، دجله وحيله ومخاريقه التي أوهم
الناس أنها كرامات ٥٤

صفحة

حواء، حديث حمل الشيطان لها على تسمية ولدها عبد الحارث ليعيش ٥٢١
الحواس والدماغ آلات الادراك ٦٣١
الحياة التى دعانا إليها الرسول ٦٣١

﴿ خ ﴾

الخبائث، تحريمها على بنى إسرائيل ٢٢٨
الخبيث والطيب، تمييز أحدهما من الآخر من أصول التشريع ٦٦٣
الختم على القلوب ٣٠
الخرافات الاسرائيلية فى حجر موسى ٣٦٧
خرافة إسرائيلية فى التفسير ٣٦٥
الخرافيون والمتفرنجون المفسدان ٢٠
خضب الشعر مستحب ولو بالسواد ٣٠٤
الخلاف فى رؤية نبينا لربه ١٤٧
الخلفاء والحكام من الصحابة أعدل حكام أمم الأرض ٦٤٩
الخلق والتكوين مبدؤه وأطواره ١٤١
خلق الناس من نفس واحدة وجعل زوجها منها ٥١٧
الخيانة، نهى الله عنها وسببه ومعناها لغة ٦٤١
خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات ٦٤٣

﴿ د ﴾

دار الفاسقين ١٩٣
دار الندوة بمكة : الائتمار بالنبى فيها ٦٥٢
الدجال : الاشكال والاشتباه والتعارض فى الروايات فيه ٤٨٩

صفحة

الدجالون المضلون : اتجارهم بالدين ٣١
درجات سماع القرآن للمؤمن والكافر ٦٢٨
« الفهم والعلم ٦٣٠
« التفاضل بين الناس ٥٩٤
الدعاء أعظم أركان العبادة ٥٢٧
دعاء الله وحده ٥٥٩
دعاء غير الله : معناه وبطلانه ولا سيما الأصنام ٥٢٥و٥٣٢و٥٥٩
دعاء موسى لنفسه ولأخيه بالمغفرة ٢٠٩
دعاء موسى لنفسه ولقومه بالمغفرة ٢١٩
دعاء موسى بطلب حسنتى الدنيا والآخرة ٢٢١
الدعوة إلى الايمان والاسلام ٣١٢
الدك والخرور والصعق ١٢٤
الدنيا . سعتها بالايمان والتقوى ٢٤
الدنيا ماقيل فى تحديد عمرها وورده ٤٧٠
الدين : إخلاصه لله وحده ٥٥٩
« : ذم الغلو فيه ٥٧٢
« قوام المدنية وحفاظها ٢٣
« القول فيه بغير وحى الله كفر ٥٦١
« مايجب منه على الأمة بثبوته قطعاً ٦٣٢
« مايؤخذ من اجتهاد السلف وأئمة العلم منه ٦٣٣
« موجب لسعادة الدارين لأنه مكمل للفطرة روحاً وجسداً ٢٤
« والوطن : مكانتهما من النفس ٣و١٠
دين الاسلام : توقف إقامته على اللغة العربية ٣١٣

صفحة

﴿ ذ ﴾

ذات أنواط التي طلبوها من النبي ﷺ ١٠٩
الذرء في اللغة ٤١٨
ذر ـ فعل أمر : معناه وتصريفه ٤٤٠
ذكر الله في النفس وباللسان وصفته ووقته ومضار الغفلة عنه ٥٥٧
« وجل القلوب عنده ٥٨٨
ذنوب الأمم لا تغفر ٢٩ و٣٠

﴿ ر ﴾

الرجز الذي أنزل على بني إسرائيل ٣٧٤
« على آل فرعون ٩٣
الرجفة التي أخذت شيوخ بني إسرائيل ٢١٥
« والصيحة التي أخذت قوم شعيب ١٠
الرحمة الإلهية : سعتها لكل شيء ٢٢٢
« كتابتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين يؤمنون بآيات الله ، ووصف هؤلاء بأنهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ٢٢٣
رحمة الله ومغفرته ٢٠٩ و٢١٩ و٥٦٣
الرخاء سبب لكثرة النسل ١٦
الرسالة العامة والرسل ٥٦٥
الرسل : آياتهم ٥٦٥ إتهامهم بالسحر ٥٦٦ أخذ أقوامهم بالبأساء والضراء ١٤ أول ما دعوا إليه ٥٦٥ بعثتهم في جميع الأمم ٥٦٥ تعاليمهم ٤٥٤ جزاء الإيمان والكفر بهم ٥٦٥

صفحة

الرسل ، جزمهم بامتناع وقوع الشرك والكفر منهم إلا ما شاء الله ٦٠ حصر وظيفتهم في التبليغ ٥١٤ حكمة إرسالهم في القرى دون البادية ١٤ رمي أقوامهم إياهم بالجنون وأسبابه ٤٥٣ سؤالهم عن الأمم وسؤال الأمم عنهم ٥٦٥، ٥٦٨ شبهة الأمم عليهم ٥٦٦ عقاب الأمم على تكذيبهم ٥٦٦ قصصهم مع أقوامهم ٥٦٦ معنى انتمائهم إلى ملل أقوامهم قبل بعثهم وامتناع عودتهم إليها بعدها ٥ نصيحتهم وهدايتهم للأمم ٥٦٦
الرسول : معنى اتباعه وما يتعلق بذلك ٣٠٣
الرسول النبي الأمي الذي بشر به موسى وعيسى ٢٢٤
« نفيه عن نفسه علم الغيب ٥١١ نفيه عن نفسه ملك النفع والضر ٥٠٨
« والنبي : معناهما ٢٢٥
الرشد واللغات فيه وضده الغي ١٩٧
الرقص ومفاسد المراقص ٥٤٦
الرقى وتأثيرها بالوهم والاعتقاد ٤٢٢
الروح هو المدرك والحواس آلات له ١٦٣
الرؤيا والأحلام ١٦١
رؤية الرب : آيات الإثبات والنفي فيها وتفسير المختلفين فيها لهن ١٣٤ آيات الإثبات لها ليست نصوصاً قطعية ١٣٨ الأحاديث الصحيحة صريحة فيها ولكن يأتي فيها مذهبا التأويل والتفويض ١٣٨

obeikandi.com

صفحة

رؤية الرب ، إختلاف العلماء فيها ١٣٤
تأويل بعض أهل السنة لها ١٥٢
التحقيق فيها ١٤٩ تقريبها من العقل
١٥٤ الحجب المانعة دونها ١٤٠ حديث
عائشة فى نفى وقوعها للنبى ١٣٩ حصولها
بتجلى الصور ١٤٢ـ١٤٦ الخلاف فى
حصولها للنبى ١٤٧ طلب موسى لها ثم
توبته منها ١٢٢ عدم إطاقة هذا الخلق
لها ١٢٣ الكلمة الجامعة فيها ١٧٧ كون
حجاب الكبرياء ممكن منها الامانع ١٤٢
ليست من أصول الايمان القطعية ١٥٧
ليست من المحالات العقلية ١٣٨ مذاهب
الصوفية فيها ١٦٦ نفيه ﷺ لها ١٣٩
رؤية الرب سبحانه أيضاً ٥٦١
« الملائكة والجن فى حال التشكل ١٦٢

﴿ ز ﴾

الزبور : بشارته بنبينا ٢٦٥ـ٢٧٠ و ٢٧٥
الزنادقة : وضعهم للأحاديث ٥٠٦
الزينة إنكار تحريمها ٥٧١
الزوج : خلق زوجها منها ٥١٧
الزوجية . وظيفتها وغايتها ٥١٨

﴿ س ﴾

الساعة : الاستدلال عليها بعدد أبى جاد
للحروف المقطعة فى أوائل السور ٤٧٤
أشراطها وأماراتها ٤٨٣ إطلاقاتها هى
والقيامة فى الاستعمال والفرق بينهما ٤١٢

صفحة

الساعة : تعريفها لغة وشرعا ٤٦١ تكرار
الحصر بكون علمها عند الله ٤٦٩ سؤال
النبي ﷺ أيان مرساها ومن السائلون
وجوابه بحصر أمرها فى علم الله والحكمة
فى إبهام أمرها على الناس ٤٦٥ ما ورد
فى قربها وأشراطها وما قيل فى عمر
الدنيا ونقد الروايات فيها ٤٧٠
الساعة: معنى ثقلها فى السموات والأرض
وكونها لا تأتى إلا بغتة ٤٦٧
الساعة : والقيامة وكون كل منهما ٣
أقسام : قيامة الفرد أو ساعته ، وقيامة
الأمة أو الدولة وقيامة العالم كله ١٦٣
السامرى وماقيل فى صنعه للعجل ٢٠١
السبت . اعتداء اليهود فيه ٣٧٦
السحر ، أسرع الناس تصديقاً له
الحشوية والعامة ٥٧
« بالتخيلات التى تظهر الأشياء على
خلاف حقيقتها ٥١
« بالحيل والمواطآت بين أشخاص
على خداع غيرهم ٥٤
« بالصور التى تظن أنها أحياء ٥٣
« بما يدعون من حديث الجن
واستخدامهم ٥٣ و ٥٥
السحر : تعريفه وما أخذه من اللغة ٤٧
« حقيقته وأنواعه ٤٦
« الدليل على كونه خيلا ومخاريق أن
منتحليه لو كانوا ممن يعلم بالغيب وخوارق
العادات لكانت حالهم ارقى من حال

صفحة

الملوك عزة وثروة ولكنهم أسوأ
الناس حالا فى الغالب ٥٧
السحر : الروايات المختلقة فيه كالساحرة
مع عائشة وساحرة ابن هبيرة ٥٧
« عند أهل بابل ٤٩
« الفرق بينه وبين المعجزات ٥٩
« كلام الجصاص المفسر فيه ٤٨
« وجوه تكفير المصدق به ٥١
سحر النميمة والافساد وسحر الادوية
الجهولة المبلدة والمخبلة للعقل ٥٦
سحرة فرعون . إتهامه إياهم بالمكر
والتواطؤ مع موسى لقلب ملكه وجوابهم
له ٧٧ اجتماعهم لمغالبة موسى ٦٣ دعاؤهم
بكمال الصبر والوفاة على الاسلام ٧٧ غلب
موسى عليهم وإيمانهم ٦٩و٧٦
سعادة الدنيا والآخرة باتباع الرسل
لا بالانتماء اليهم ولا بجاههم ٣١
سكوت الغضب ٢١٣
السلف : مذهبهم المحقق لوحدة الدين ١٣٢
« رجوع الامام الجوينى اليه ١٨٠
سماع القرآن ، فوائده وتأثيره فى طاعة
الله ورسوله وسوء حال المعرضين عنه
وتشبيههم بشر الدواب ودرجات سماعه
للكافر به وللمؤمنين وحال عامة مسلمي
بلادنا فيه ٦٢٦-٦٣٠
سنن الله فى أفعال العباد وخلقه وقدره ٦٣٥
« « الأمم ١٨-٢٣

صفحة

سنن الله فى التميز بين الخبيث والطيب ٦٦٣
« « الحيلولة بين المرء وقلبه ٦٣٤
« وحكمه فى قصص الأنبياء ١٤
« ومشيئته ٤٠٩
سنة الله تعالى فى أخذ أقوام الرسل بالشدائد
ثم فى تبديلها رخاء وحسنات ١٤-١٦
« فى استخلاف الأمم فى الأرض ٥٧٧
سنة الله فى بقاء الأمم بخيارها الناهين عن
الفساد فى الأرض ٥٢٠
« « حفظ الأمم من الهلاك
بالاصلاح فى الأرض ٢١
« « خلق البشر وشؤنهم ٥٧٦
« « صرف المتكبرين عن آياته ١٩٦
« « ضياع الممالك ٥٧٩
« « طباع البشر فى الايمان والكفر
إمكانا وامتناعا ٣٣
« « عقاب الأمم ٣٧٧-٣٨٠
« فيمن اتبع هواه وأخلد إلى
الارض ٤٠٦
السنون . أخذ فرعون وقومه بها ٨٦
﴿سورة الأعراف، خلاصتها فى ٦ أبواب﴾
(١) توحيد الله تعالى إيمانا وعبادة وتشريعا
وصفاته وشؤون ربوبيته وفيه ١٢ أصلا ٥٥٩
(٢) الوحى والكتب والرسالة وفيه ٢٤
أصلا فى ٣ فصول ٥٦٣
(٣) عالم الآخرة والبعث والجزاء وفيه ١٢
أصلا ٥٦٧
(٤) أصول التشريع وفيه ٩ أصول ٥٦٩

صفحة

(٥) آيات الله وسننه في خلقه وفيه ١٤ أصلا ٥٧٣
(٦) سنن الله في الاجتماع والعمران البشرى وفيه ٧ أصول ٥٧٦
السور ، مباحث ترتيبها ٥٨٣
سورة الأنفال، ومناسبتها لما قبلها ٥٨١
« وضعها بعد الأعراف توقيفي ٥٨٢
السيوطي ، خلطه وخبطه في عمر الدنيا ورسالته ﴿ الكشف في عدم مجاوزة هذه الأمة الألف ﴾ ٤٧٧

﴿ ش ﴾

الشافعي الإمام، حجته على وجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين ٣١٠
« تخطئة من زعم أنه أباح ترجمة القرآن ٣٤٠
شبهات كفار عصرنا على الدين ٣٠٩
الشدائد ، تمحيص وتربية للمؤمنين ونقمة على غيرهم ١٤و١٧
الشرع الإلهي كله حسن في نفسه ٥٦١
شرفاء مكة في عصرنا وغرورهم ونزع ولاية الحرم منهم ٦٥٨
الشرق والغرب ، مستقبلهما ونصيحة سياسي أوربي لنا ٢٢
الشرك، إبطاله بالحجج الحسية والعقلية ٥٢٥
« الآيات في الاحتجاج على أهله ٥٦٠
« بدعاء غير الله تعالى (راجع دعاء)
« بعبادة الوثن وعبادة النبي والملك سواء ٥٢٦

صفحة

الشرك الخفي والجلي ٥١٨
« شبهته العامة في الأمم ٥٠٩
الشريعة الإسلامية إبطال دولة الترك لها ٣١٧
« المحمدية ، يسرها ٢٢٩
الشعوب، حالها مع مستعمري أرضها ٥٧٨
الشعوذة وحيلها ٥٢
شعيب ، إرساله إلى أصحاب الأيكة ١١
« إنذار قومه إياه بإخراجه ومن آمن معه أو يعودوا في ملتهم وجوابه عليه السلام لهم بامتناع ذلك عقلا بأبلغ المؤكدات ٢-٩
« دعاؤه بالفتح بينه وبين قومه ٨
« عقاب قومه بإصرارهم على تكذيبه ١١
« غش الملأ من قومه لهم في صدهم عنه ١٠
الشفاعة ، طلب أهل الموقف لها من كبار الرسل ومدافعتهم إياها ما عدا محمداً ﷺ فله الشفاعة العظمى يوم القيامة ٣٠١
الشقي من لا يعتبر بالنعم ولا بالنقم بل يزيده كل منهما شراً وضرراً ١٦
شمسنا والشموس الأخرى ١٤٠
شهادة العالمية في الأزهر والتوسل إليها برشوة العلماء ١٩
الشهوات ، استدراجها للإنسان من اللمم إلى كبائر الإثم والفواحش ٥٤٧
الشياطين تقويتها الداعية الشر في النفس ٥٤٤
« فعلها في الأنفس كفعل ميكروبات الأمراض في الأجساد ٥٤٠و٥٤٤

صفحة

الشياطين . مددإخوانهم لهم فى الغى ٥٥٠
الشيب . استحباب خضابه ٣٠٤
الشيطان تذكر المتقين إذا مسهم طائف منه ٥٤٢
« نزغه للانسان والاستعاذة منها ٥٣٩
« يزين لكل أحد الشر على قدر استعدادهم له ٥٤٧
الشيوخ. ترك تقليدهم وإن جلوا ١٧٩-١٨١

﴿ ص — ض ﴾

الصالحون التقرب اليهم ودعاؤهم لما لا يطلب إلا من الله ٤٢٢،
« الغلو فى تعظيمهم منشأ للشرك ٥٠٩
الصباح والمساء ذكر الله فيهما ٥٥٧
الصبر طلب كماله ومعناه وفائدته ٧٧
الصحابة مراجعتهم للرسول فى رأيه ٣٠٤
« رواياتهم عن كل مسلم مستور ٥٠٦
الصفات الايمان بها بلا تشبيه ولا تعطيل ١٨٣
« لا يجوز ترجمتها شرعا ولا تمكن ٣٢٧
صفة الكلام . تقريبها من الافهام ١٨٤
الصلاة إقامتها من صفات المؤمنين ٥٩٣
الصنم والتمثال والفرق بينهما ١٠٥
الصور والتماثيل المعبودة عند النصارى ٣٠٩
الصوفية . ارتداد بعضهم بالتأويل ١٣١
« ومذاهبهم فى الرؤية ١٦٦
الضحى معناه ٢٧
الضفادع والدم الذى عذب به آل فرعون ٩٢

صفحة

﴿ ط — ظ ﴾

طاعة الله ورسوله الأمر بها ٥٨٧
الطبع على القلوب ٢٩ و ٣٣
الطلاسم ونحوها من الخرافات ٤٢٢
الطوفان الذى عذب به آل فرعون ٨٩
الطيبات ، إحلالها لبنى إسرائيل ٢٢٨
الظلمة ، استعانتهم بعلماء الدين ١٥٩

﴿ ع ﴾

عائشة، انكارها رؤية النبى ربه ١٣٩، ١٥٣
عبادة الله وحده وصفة أهلها كعلو الهمة والترفع عن قبول الذل والطهارة من الخرافات ٤٢١
العبادة : حقيقتها ١٠٥ و ١١٣
عبادة غير الله بدعائه أبلغ من عبادته بالصلاة له ٥٢٧
عباد الأهواء وما ينالهم من الاعياء ٤٠٧
العبرة العامة فى قصة موسى ١٠١
« فى الأمر بأخذ الكتاب بقوة ١٩٣
عجل بنى إسرائيل ومباحثه ٢٠٠
العدل : تعظيم شأنه ٥٧٢
العذاب، تقييده بالمشيئة ٢٢٢
العرب ، استضعافهم قبل الاسلام وعزتهم به ٦٣٩ إيمانهم وعمرانهم وفتوحهم بفهم القرآن ٥٥٥
العربية لدى الأعاجم سلفاً وخلفاً ٣٣٠
العرف وكونه من أصول التشريع ٥٣٤

صفحة

العزائم والتبخيرات من السحر ٤٢٢
عصا موسى وفعلها ٤٤و٦٦
عصبية الاقوام والأوطان ١٠
عصرنا ، وملاحدته وعلومه ومذاهب المعيشة وفوضى الآداب وفساد الأخلاق فيه ٣٠٩و٥٤٨
عصمة الأنبياء من تصديق الكاذب ٤٩٥
عفو الله عن بعض الذنوب ٣٧٧
العفو لغة وشرعا وكون أخذه من الناس أصلا من أصول الشرائع والآداب ٥٣٣
العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ١٥٧
« فسادها فى هذا الزمان ٥٤٩
عقائد الاسلام . اختلاف الأفهام الضار فيها وغير الضار ١٣١
العقاب الالهى . سرعته ٣٨١
عقاب الأفراد خاص وعقاب الامم عام ٣٧٧
العقول . عجزها عن إدراك حقيقة النور ١٧٣
« وجوب مراعاة استعدادها فى التحديث والتعليم ١٥٨
العقيدة الفاسدة التى أضاعت دين المسلمين ودنياهم ٣١
العلم أعلاه معرفة الله تعالى ١٥٠
العلم بمعناه العام . تعظيم شأنه ٥٧٠
علم العقل وعلم التجارب الآلية ١٦٥
علم الغيب نفيه عن الرسول ٥١١
علم الكلام بدعته مازالت بها الشبهات عن

صفحة

الدين بل زادت وما اجتمع أهله على أصول معقولة بل ازدادت به تفرقا ولا يمكن أن يكلفه الله عباده لفهم دينه لأنه نظريات فلسفية لا يحذقها إلا الذين ينقطعون السنين الطوال لفهمها ودين الله سهل كان يفهمه البدو كالحضر ومذهب السلف فى فهمه أقرب إلى العقل منه ١٣٢
علم الله تعالى . سعته ٦
العلماء . إعانتهم للظلمة ١٥٩
علماء الدنيا انسلاخهم من آيات الله تعالى واتباع أهوائهم وإخلادهم إلى الارض وكونهم فتنة تصد عن الاسلام ٤١٦
علوم التكوين العصرية مؤيدة لمذهب السلف ١٧٢
« الكون وما فيه من سنن ونظام ومنافع تكون حجابا بين المشتغلين بها وبين الخالق تعالى وشاغلة لهم عن ذكره وشكره وعبادته إذا كان نظرهم فيها لذاتها ومنافعها — وتكون أعظم الآيات والدلائل الموصلة لهم إلى كمال معرفته وما يتبعه من شكره وعبادته وهو ماسينتهى اليه سير الارتقاء العلمى عند جمهور أهله ١٧٤
علو الرب على خلقه ٥٦١
علو الرب على خلقه بائناً منهم هو الذى تقتضيه هيئة العالم ١٨٠-١٨٣

صفحة

العمل القومي وغرائبه ١٦٠
عهد الله الفطري وعهده الشرعي ٣٤
العهد ومعنى نفيه عن أكثر الكفار ٣٣
العينان كفر نعمتهما بعدم استعمالها النافع ٤٢٦

﴿ غ ﴾

الغافلون، أقسامهم وكونهم أهل النار ٤٢٩
الغزالي ، إثباته عدم جواز ترجمة أسماء الله وصفاته ٣٢٧
الغزالي ، كلمته البليغة في صفة القدرة التي تصدق على سائر الصفات ١٨٤
غزوة بدر ، أسلوب القرآن فيها ٥٩٧
غزوة بدر ، خبر العير والنفير فيها ٥٩٨
الغضب والذلة على متخذي العجل ٢١١
الغضب والأسف ٢٠٦
الغفلة عن الله ، النهي عنها ٥٥٨
غلام أحمد القادياني الدجال ١٣٥

﴿ ف ﴾

الفارقليط (محمد ﷺ) ٢٧٧–٢٩١
الفاسقون : عقابهم في الدنيا ٣٧٧
الفتح : تحقيق معناه ووقوعه بين الناس ٨
الفتن الاجتماعية والسياسية ، الأمر باتقائها وعقاب الأمم عليها في الدنيا وكونه عاماً لا خاصاً ٦٣٧
فتنة الأموال والأولاد ٦٤٤
الفتنة التي أصيب بها المسلمون من عهد خلافة عثمان ٦٣٨

صفحة

الفتنة بين المسلمين واتقاء القتال فيها ٦٦٦
« تحقيق معناها وتخطئة من ادعى أن قول موسى عليه السلام (إن هي إلا فتنتك) جرأة على الله تعالى أو إدلال ٢٢٠
فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن ٣٢٤
« مسألة الرؤية ١٤٩
الفرار من الزحف تحريمه الوعيد عليه ٦١٦
الفرقان الذي هو ثمرة التقوى وتحقيق القول فيه وهو أنواع : فرقان في العلوم بأنواعها ، وفرقان الحكم الصحيح في الأشياء وبين الناس وفي العقائد حقها وباطلها ، وفي الأعمال صحيحها وفاسدها وخيرها وشرها وإطلاقه على الكتب الالهية وعلى غزوة بدر ٦٤٧
فرعون . إتهامه لموسى بطلب الملك ٦٠
« مجاراة حكومته للعوام على خرافاتهم ٩٦
« وآلهته ومكانه منها ٧٩
« وملؤه إخراجهم من مصر ٧١
« وملؤه ظلمهما بتكذيب رسالة موسى وعاقبة المفسدين مثلهم ٣٩
الفرق التي خرجت من الملة بالتأويل ١٣١
الفروق بين آيات متشابهات وغير متشابهات في القرآن ٥٤٢
فروق دقيقة بين الجمل الحالية الاسمية والفعلية المقترنة بقد وغيرها ١٥
الفسق وصف أكثر أقوام الرسل به ٣٥
فساد الأخلاق والأعراض في هذا الزمان ٥٤٨

صفحة

﴿ فصل ﴾

فى اختلاف المسلمين فى رؤية الرب وكلامه وتحقيق الحق فيهما ، وفيها من الحقائق الالهية والحديثية والكونية والعلمية والبلاغية وتأييد السنة والتقريب بين مذهب السلف وعلوم هذا العصر مالا يوجد له نظير فى كتاب ١٢٨-١٨٩
فصل فى بشارات الكتب الالهية بنبينا ٢٣٠

﴿ فصل فيما ورد فى قرب الساعة وأشراطها وما قيل فى عمر الدنيا ﴾

وفيه من التحقيق مالا يوجد فى كتاب ٤٧٠
الفطرة وآيات الكون هى ميثاق الله على ربوبيته ٣٩٧
الفقهاء تشديدهم فى الدين ٣٤٠
الفقه تحقيق معناه واستعماله فى القرآن ٤٢٠
الفقه المنفى عن المخلوقين للنار وأنواعه الكلية ٤٢١-٤٢٦
الفكر لغة واصطلاحا ٤٦٠
الفيلسوف سبنسر كلمته للأستاذ الامام فى سوء حال أوربة ومستقبلها ٢١

﴿ ق ﴾

القاديانية ملتهم الجديدة ١٣٥
القبور ابتداع تشييدها وتزيينها واتخاذها مساجد ومعابد ١٠٩
القتال الأمر به حتى لا تكون فتنة ٥٦٥
القتال مجادلة كارهيه للرسول فيه ٥٩٩

صفحة

القدر واختيار العباد فى أفعالهم ٦٣٥
القرآن . آياته وأمثاله فى صفات المخلوقين للنار ٤٢١ و٤٢٧ أحكامه القطعية وغير القطعية ١٥٧ اختلاف التعبير فيه عن المتشابهات فى الموضوع ٣٧١ إرشاده إلى سنن الاجتماع ٥٧٩ أسباب الخطأ فى فهمه ١٢٨ إسلام الأمة العربية بتأثيره ٣٤٥ أسلوب قصصه البديع ٥٩٦ أسماء يوم القيامة فيه وما تشير اليه من الحقائق الفلكية وصفة خراب العالم ٣٤٩ إعراض المسلمين عنه ٣١ أعجب جمله وأبلغها وأخوفها ٦٣٤ أكمل الكتب الالهية بيانا وبرهانا وسلطانا ٤٥٩ أمر المؤمنين باتباعه دون غيره ٥٦٣ إنزاله على خاتم الرسل للانذار به ٥٣٠ إيجازه فى القراءات ١١٦ بصائر وهدى ورحمة للمؤمنين ٥٥١ بلاغة آية قصيرة منه بجمعها لقواعد التشريع ٥٣٨ بلاغة مفرداته وجمله ٣٤٨-٣٥٢ بلاغته ٧٤ بلاغته فى اختلاف التعبير عن الأمرين المتشابهين ٣٨ و٦٢ و٦٤ و٦٧ بلاغته فى الاستئناف البيانى ١٢ بلاغته فى استعمال لفظ الارساء لقيام الساعة وما فيه من الاشارة إلى حركة الأرض ودورانها ٤٦٤ بلاغته فى الايجاز ٣٧٦ بلاغته فى البراهين العقلية ١١٧ بلاغته فى التأكيد ٦٣ بلاغته فى التضمين ٤٠ بلاغته فى

صفحة

التكرار ١٣ بلاغته فى الجمل الحالية والفرق بينها وبين المفردة ١٥، ٣٥١ بلاغتــه فى حروف العطف ٣٧ـ٤١ و٧٤ بلاغته فى حروف المعانى ٧٣ بلاغته فى الحذف والاكتفاء ٢١٨ بلاغته فى الفصل والوصل ٤١ و١١٧ بلاغته فى مراعاة الفواصل ٦٤ بلاغته فى الوصف والكناية والاسلوب ٣٥٢ بيانه لسنن الله فى تطور الأمم وإعراض المسلمين عنها وضعفهم بذلك ١٨٠ تأثير أسلوبه حتى فى نفس غير المؤمن به ٣٢٨ تأثيره فى الايمان وكون من لا يؤمن به لا يؤمن بغيره ٤٥٨ تأثيره فى الجذب إلى الاسلام وفى قوته ٥٥٥ تبرئته لهارون عليه السـلام من إسناد اتخاذ العجل اليه كما فى توراتهم ٢٠٩ تحتيمه عقاب الأمم على ذنوبها وغفلة المسلمين عن ذلك بهجرهم له وجهلهم إياه ٣٠ تحقيق ضروب من نكت البلاغة لا توجد فى تفسير آخر ٤٠ ترتيب سوره توقيفى ٥٨٢ ترتيـله والتغنى به ٥٥٤ ترجمته . مباحثها وتصـدى الترك لها وغرضهم منها إبطال الاسلام من أمتهم ٣١٤ ـ ٣٦٣ ترجمته الحديثة الهنـدية باللغة الانكليزية وإفتاء شيخ الأزهر ومفتى بيروت عنها ٣٣٧

تسميته نوراً ٣٠٣ تصـديق أثارة تاريخية له ٩٩ تعذر ترجمته ٣٤٧ تفاسيره

صفحة

الشاغلة لذويها بالفاظه عن هدايته وتدبره ٣١ تفسير بعضه ببعض ٦٣٦ تفصيله على علم هدى ورحمة ٥٦٣ تقصير المسلمين فى بيان سنن الاجتماع فيه ٥٧٩ التناسب بين بعض آياته ومواعظه ٦٢٥ تناسب آيه ٤٤٩ جهل أهله بما فيه من أسباب سعادة المعاش والمعـاد ٤٢٨ حاجة الأفرنج إلى هديته كالمسلمين لانقاذهم من خطر شرور المـادية وطغيان الشهوات ٢٠ حثه على النظر العقلى ٤٦١ حكمة وجود الأحكام غير القطعية الدلالة فيه وحكمها ١٥٧ دعوته إيانا لما يحيينا ٦٣١ دقائق مفرداته وجمله فى التعبير ٣٤٨ دقته فى تحديد الحقائق وعدله فى الحـكم على الأمم ٣٥، ٣٦٣ زيادة الايمان بتلاوته ٥٨٩ سماعه سماع فقه واعتبار ووعيد فاقدى هذا السماع بفقدهم الاستعداد للايمان ودرجات سماعه للكافرين وللمؤمنين وحال عوام بلادنا ومقاصدهم من سماعه ٦٢٦ سنته فى الجمع بين ذكر العقاب والمغفرة والرحمة ٣٨١ شبهات من أباح ترجمته ٣٣٨ شواهد على عجز البشر عن ترجمته ٧٥ ضياع ملك المسلمين بجهله ٥٧٩ فائدة قراءاته وبلاغتهـا ٦٢ و١١٦ الفروق الدقيقة بين عباراته المعجزة ٦٢٢ الفروق فى التعبير فيه عن المعانى

صفحة

المتشابهة بالعبارات المختلفة الدلالة ٣٨ و٤٠ ، ٦٢٢ ، ٦٤ قراءته وكتابته بغير العربية ٣٣١ قوة الدين وكماله لا يحصلان إلا بكثرة قراءته مع التدبر والعمل ٥٥٤ القسم في سورة التين منه وتفسيره ٣٥٨ كونه كلام الله ١٧٨ كونه لسانا عربيا وحكما عربيا ٣١١،٣١٤

القرآن : ما يوجد فيه من كتب الرسل السابقين وخطأ من زعم أنه مترجم منها بالعربية ٣٣٩ محسنات البديع فيه ٣٦ مسألة الحرف والصوت فيه ١٧٩ ، ١٨٣ — ١٨٩ من زعم أنه لو شاء لقال مثله وأنه أساطير الأولين ٦٥٣ منعه التقليد ٣٢٦ موافقته ومخالفته للتوراة ٨٣ نصوصه في كون الدين سبباً لخيرات الدنيا وملكها إذا أقيم على وجهه ٥٢٤ نموذج من ترجمة تركية له ٣٥٣ هو الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ ٣٢٩ هو الدين كله والسنة مبينة له ٣٢٦ وأحكام الاستماع والإنصات له ٥٥٢ ولايته تعالى لرسوله بإنزاله عليه ٥٦٣ ينبوع المعارف الالهية والهداية لا تخلق جدته ولا تفتأ تتجدد هدايته وعلومه حتى الكونية ٣٢٧

القرية . استعمالها بمعنى العاصمة اليوم ١٤

قريش : ائتمار مشركيهم بالرسول ﷺ ٦٥٢ استحقاقهم العذاب بالصد عن المسجد الحرام ٦٥٧ تفضيلهم الهلاك بالرجم والعذاب الأليم على الإيمان بالقرآن إن كان حقا ٦٥٥ تكبر رؤسائهم عن اتباع النبي ١٩٦ غرورهم بالكثرة والثروة ٤٥١ نفي ولاية البيت عنهم وحصره في المؤمنين ٦٥٨ قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل ٢٠٠

قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ٤٠٤

قصة موسى مع بني إسرائيل ١٠٤

قصص الرسل . المقارنة بينها في اختلاف البدء وغيره لنكت البلاغة ٤٠
« وأخبارهم في القرآن ليست ترجمة لمثلها من كتبهم ٣٣٩

القلب . تقلبه والحيلولة بينه وبين صاحبه ومعالجته ٦٣٤ معناه وأنواع استعماله ٤١٩

قلوب المخلوقين للنار : نفي الفقاهة عنها لما تتزكى به الأنفس من أقدار الجهل والخرافات ، ولثمرات هذه التزكية في الدارين — ولمعنى الحياة الروحية والعقلية — ولمعنى الآيات الالهية ، من منزلة وكونية — ولأسباب النصر على الأعداء من مادية ومعنوية ، أو حسية وروحية — ولسنن الله في الاجتماع كغلب الحق للباطل الخ ٤٢١ — ٤٢٦

﴿ ك ﴾

الكتاب الالهي ، أخذه بقوة ١٩٣

كتاب قوم جديد التركي ومفاسده ٣٢٣

كتمان بعض العلم أو النصوص ١٥٨ و ١٦٠

صفحة

الكرامات . عدم الاعتماد عليها فى المنافع والمضار ٤١٢

كسب العبد الحقيقى ، ونفى المشاهد منه عنه وإسناده إلى الله ، وكسبه الصورى الذى لا تأثير له فيه، والجمع بين نفيه وإثباته له مع إسناده إلى الله تعالى ٦٢٠

الكشف وكون الادراك للنفس ١٦٣

كعب الاحبار . خرافاته في عمر الدنيا ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٤٩٨ رواية بعض الصحابة والتابعين عنه ٥٠٦ زعمه أنه ما من شبر فى الارض إلا وفى التوراة خبره وما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة وذكر منه صفين وما يهراق من الدماء فيها ١٩٠ مازعمه فى سبب تسمية المهدى ٥٠١ وإسرائيلياته ٤١٤ ، ٤٧٦ ـ ٤٨٠ و٥٢١

الكفار المكذبون . استدراجهم ٤٥١

الكلب : ضرب المثل به فى لهثه ٤٠٧

الكلام الالهى : خلاصة القول فيه ١٧٨

كلام الله والحرف والصوت فيه ١٨٤، ١٨٩

الكلام البشرى : كونه صفة أو ملكة ١٨٦

الكلام : حقيقته وصوره والفرق بين كلام المرء نفسه وما يحكيه عن غيره ١٨٨

الكلام : درجات الناس في فهمه ٦٣٠

الكلام النفسى . الطرق البشرية للتعبير عنه من نطق وكتابة بالقلم والتلغراف والفونوغراف والتلفون ١٨٥

صفحة

الكهرباء . كونها أول مخلوق وآخر حجاب دون الخالق ١٧٦

« مصدر مادة الكون وأطوارها ١٧٥

« مصدر النور ومبدأ التكوين ١٧٢

الكون مادته وأطوارها فى الكثافة واللطافة ١٦٥ تقدير مساحته الهائلة ١٧٥

مصدره وسننه ونظامه ١٧٤

الكيد والمكر والاستدراج من الله تعالى ٤٥٢

(ل)

اللعب . معناه ٢٧

اللغة العربية . لغة الاسلام ووجوب تعلمها على المسلمين لتوقف عباداتهم والعلم بشريعتهم ووحدتهم عليها ٣١٠ـ٣١٣

لقف العصا للافك ٦٧

لمة الملك ولمة الشيطان فى القلب ٥٤٤

(م)

مادة الكون من بسائط ومركبات ١٦٥

المتشابه . من قال إنه لا يذكر للعامة ١٥٨

المتقون . شأنهم فى دفع طائف الشيطان ٥٤٣ـ٥٥٠

المتكبرون بغير الحق ، عدم استدلالهم بآيات الله الكونية وعدم إيمانهم بآياته المنزلة وعدم اتباعهم سبيل الرشد واتباعهم سبيل الغى ١٩٦ـ١٩٨

المعتزلة والاشاعرة ١٣٠

« وأهل السنة . خلافهم فى الرؤية ١٥١

صفحة

مثل الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ٤٠٤
المحرمات الدينية : حصر أنواعها ٥٧٣
محمد عبيد الله التركى المبعوث أحد دعاة التفريق بين الترك والعرب ٣٢١
المدنية بقاؤها بالفضيلة وإنما الفضيلة بالدين ٢٣
المذاهب ضرر الخلاف فيها وما يتقى به ١٣٣
المذاهب مفسدة الاختلاف فيها وهدمها الدين بجعلها أصولا له ١٢٩
مذهب السلف : تأييد علوم الكون ولا سيما الكهربائية له ١٧٢
« « رجوع كبار النظار اليه ١٧٩ و ١٨٨
« « فى الرؤيه أقرب إلى حقائق العلوم الكونية من مذاهب المتكلمين ١٧٧
مريم أم المسيح . عبادتهم لها ٣٠٩
مسألة الحرف والصوت فى القرآن ١٧٩
مسخ عصاة بنى إسرائيل صورى أو معنوى ؟ ٣٧٩
المسلمون : اتباعهم لليهود فى فسادهم ٣٨٤
التفريق بينهم بالوطن والجنس ١٠
جهلهم بما فى القرآن من أسباب السعادة ٤٢٨ حالهم اليوم وما وصف الله به أهل النار وأهل الجنة ٤٣٠ سلفهم الصالح وخلفهم الطالح ٦٤٩ سلفهم وخلفهم مع الشعوب الأخرى فى الفتح والنصر ٦٦٧
ضياع ملكهم بجهلهم ٥٧٩ من صفاتهم الأمر بالمعروف الخ ٥٣٥

صفحة

المسيح : أمثاله فى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ٢٧٤
الأنبياء والمسحاء الكذبة فى عصره ٢٣٧ بحث فى البشارات به ٢٣٩–٢٤٤
بطلان ادعاء كونه خاتم النبيين ٢٣٦
زيادة النصارى فى كلامه ٢٤٨
المسيحية القاديانية الهندية ١٣٥، ٣٣٧
المشركون : تجهيلهم بإشراكهم مالا يخلق شيئاً وهم مخلوقون ولا يستطيعون نصراً لعابديهم ولا لأنفسهم ، ولا يتبعون الداعى إلى الهدى فدعاؤهم وعدمه سواء ٥٢٥ ويكون من يدعونهم عباداً أمثالهم بل أعجز منهم ٥٢٧–٥٣٢
مشيئة الله . الاستثناء لمتعلقها ٥٠٩
« تجرى بحسب سننه ٤٠٩
مشيئته تعالى تجرى بحسب علمه وحكمته وتعليل ماخفى منها بالعلم ٦
مصر . مجاراة حكوماتها القديمة والحديثة العوام على خرافاتهم ٩٦
مصر . مانقل من استيلاء موسى عليها ٩٨
المعروف له إطلاقان وكون الأمر به من صفات المسلمين والعمل به من أصول التشريع عندهم ٥٣٤
مغفرة الله ورحمته لمن تاب وأصلح ٣٨١
المغفرة والرحمة . الجمع بينهما ٢٠٩ و ٢١٩
المقابلة والتنظير بين المتشابهات فى التعبير فى القرآن ٣٧١
المقلد كالمعاند لاقيمة للدليل عنده ٣٢
المقلدون الجامدون اتجارهم بإفساد الدين ٣١

صفحة

المنكر . معناه وإسناده إلى الله ٢٧، ٦٥١
ملكوت السموات كناية عن محمد ﷺ ٢٧٠
الملائكة . إمدادهم للمؤمنين ببدر ٦١٢
الملائكة . تثبيتهم للمؤمنين ببدر ٦٠٧
الملائكة . تقويتهم لداعية الحق والخير في النفس ٥٤٤
الملائكة . لم تقاتل يوم بدر ٦١٣
الملائكة المقربون . عبادتهم وتسبيحهم وسجودهم ٥٥٨
الملائكة والجن . تشكلهم في الصور ١٦٢
ملاحدة زماننا ومعطلته ٣٠٩
المن والسلوى لبني إسرائيل في التيه ٣٦٨
المنكر . فاعلوه والناهون لهم والساكتون وجزاء كل منهم ودرجات النهي عنه وتغييره ومتى يسقط ؟ ٣٧٦–٣٧٨
موسى عليه السلام . آيته في عصاه وفي يده ٤٤ اختياره ٧٠ رجلا للميقات وما حل بهم ٢١٥ استخلافه لهارون وأمره بالإصلاح ١٢١ اصطفاؤه بالرسالة وبالكلام ١٢٧ ألواحه وكتابتها وما كتب فيها ١٨٩ أمره بأخذ الشريعة بقوة ١٩٢ انبجاس الماء له من الحجر ٣٦٦ تلقيه كليات الشريعة في ٤٠ يوما ١٢٠ توبته وكونه أول المؤمنين ١٢٦ حجته على فرعون بعصمته في التبليغ خروره صعقاً من التجلي ١٢٥ تكليم الرب له وطلبه الرؤية ومنعه منها ١٢٢ دعاؤه له ولأخيه بالمغفرة والرحمة

صفحة

٢٠٩ و٢١٩ رجوعه إلى قومه غضبان لاتخاذهم العجل ومؤاخذته لهارون وإلقاؤه الألواح ٢٠٦ سكوت الغضب عنه وأخذه الألواح ١١٣ الفرق بين رسالته ورسالة من قبله ٣٧ قصته واسمه واسم والده ومعنى اسمه وسبب كثرة ذكره وتكرار قصته في القرآن ٣٦ قوله (إن هي إلا فتنتك) ٢١٨ مراتب إنكاره لطلب قومه أن يجعل لهم إلهاً ١١٤ مواعدة الرب له وميقاته له ١١٩ موضوع رسالته لفرعون تخليته له عن بني إسرائيل ٤٣ وجود أمة من قومه تهدي بالحق والعدل ٣٦٣ وصيته لقومه بالاستعانة بالله والصبر ووعدهم بإرث الأرض ٨٠
المهدي . الاختلاف والتعارض والاشكالات في الأحاديث الواردة فيه ٤٥١، ٤٩٩
« الاختلاف في نسبه وسببه ٥٠٢
« انتظاره وما كان ينبغي لمنتظريه ٤٩٩
مواثيق الله المأخوذة بالفطرة ٤٠٠
المؤمنون حق الإيمان ٤٩٤
المؤمنون الكاملون . صفتهم وجزاؤهم ٥٨٨–٥٩٦
المؤمن . شأنه العلم والاعتبار والاستفادة من الحوادث والأقدار ١٨
ميقات الرب لموسى ١١٩
الميثاق الإلهي . أخذه على بني آدم وإشهادهم على أنفسهم بربوبيته ٣٨٦

صفحة

﴿ ن ﴾

النار . أشد عذابها الحجاب عن الله ١٥١
النار . صفات المخلوقين لها في عقولهم ونفوسهم وحواسهم وضلالهم وغفلتهم وتفضيل الأنعام عليهم ٤٢١–٤٣١
النار . (راجع أهل النار)
النبي والرسول معناها ٢٢٥
النبي المعروف بلام العهد في الإنجيل ٢٣٥
نبينا . إتباعه في العادات ٣٠٧ إجتهاده ورأيه في أمور الدنيا ٣٠٤ إجتهاده وأخذه بالقرآن فيما يتمثل له من المغيبات ٥٠٦ احلاله الطيبات وتحريمه الخبائث ووضعه الاصر والأغلال التي كانت على أهل الكتاب ٢٢٨ إخباره بالغيب وظهور صدقه فيه ٢٥٥ إرساله باللسان العربي إلى جميع البشر يقتضي وجوب توحيد لغتهم ليتم الاتحاد بينهم ٣١٠ استخراج اسمه من التوراة بحساب الجمل ٢٦١ استدلاله على عدم علمه الغيب ٥١١ أصول الايمان التي دعا اليها ٣٠٠ إعلام الله إياه بعض ما سيقع لأمته ٥٠٥ الأمر بالتفكر في حاله وتربيته وما كان عليه وما جاء به ٤٥٦ و٥٦٤ أمره بأن ينفي عن نفسه ملك النفع والضر بغير طريق الاسباب وعلم الغيب ٥٠٧ و ٥٦٤ أمره بالمعروف ونهيه عن

صفحة

المنكر ٢٢٧ ائتمار قريش به الذي تقدم الهجرة ٦٥٠ و ٦٥٢ بشارات التوراة والانجيل وغيرها به ٢٣٠–٣٠٠ (وراجع بشارة) بشارة داود به بصفاته ٢٦٥ تسميته بمحمد في انجيل برنابا وبأحمد في غيره ٢٩١ – ٢٩٧ تسمية المسيح إياه بالفارقليط ٢٧٧–٢٩١ التشريع وغيره من أقواله وأفعاله ٣٠٣ تفنيد الجصاص الرواية في كونه سحر ٥٨ تمثيل بعض المغيبات له ٦٠٦ توكله يوم الغار وخوفه يوم بدر وحال الصديق فيهما ٦٠ تكنية المسيح له بملكوت السموات ٢٧٠ تكنية المسيح له بالحجر رأس الزاوية ٢٧٤ حصر الفلاح في الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ٢٢٩ حصر وظيفة رسالته في التبليغ عن الله إنذاراً وتبشيراً ٥١٤ حكمة التعبير عنه بكونه صاحباً لقومه ٤٥٦ الخمس التي أعطيها دون سائر الأنبياء ٣٠٠ خوفه ودعاؤه يوم بدر ٦٠٢ دعوته أهل الكتاب إلى الاسلام وحججه عليهم والفرق بينهما وبين دعوة المشركين ٣٠٩ رجوعه عن رأيه إلى رأي الحباب بن المنذر ببدر ٦١١ نبينا الرحمة الخاصة المكتوبة لاتباعه ٢٢٤ رؤيته لجبريل بصورته ١٤٠ ، ١٧٣ رؤيته للجن الملائكة ١٧٣ رميته

صفحة

المشركين بالتراب ببدر ونفيه عنه
مع إثباته وإسناده إلى الله تعالى ٦٢١
رمى المشركين له بالجنون وكون
التفكر الصحيح يبطل هذا ٤٥٣
شفاعته العظمى ٣٠١ شهادة علماء
اليهود من أسلم منهم له ٢٥٦ علمه
بسنن الاجتماع والتصرف فى القتال
٦٠٦ عموم رسالته وما دعا البشر اليه
٣٠٧،٣٠٠ عموم رسالته الآيات فيها
٥٦٤،٣١٦ علو درجته على الصديق
فى التوكل والخوف ٦٠٣ كشف
مصارع الكفار له ببدر ٦٠٦ كونه
ليس إلا نذيراً مبيناً ٤٥٥ كونه
مكتوبا فى التوراة والانجيل وصفاته
فيهما ٢٢٦ لم يكن يخبر أصحابه بكل
ما أطلعه الله عليه ٥٠٥ لم يكن يعلم
الغيب ٥٠٤و٥٦٤ مراجعة الصحابة
له فى رأيه ٣٠٤ معجزة تاريخية له
١٠٠ مقامه أعلى العبودية ودون
الربوبية ٥١١ من قال لا تجب طاعته
بعد وفاته فهو زنديق ٦٣٣ نفى خبر
رؤيته لربه ليلة المعراج ١٤٠و١٤٧
نهيه عن ضيق الصدر بجلال القرآن
٥٦٣ وجوب اتباعه ولوازمه ٣٠٢
نبينا ، وجوب الاستجابة له على من دعاه
حتى بعد مماته وما يتعلق به الوجوب
من أمر الدين القطعى مع مقابله ٦٣٢

صـ

وصفه بالأمية فى الكتب الالهية
وصف المسيح أمته بالأو
والآخرين وضرب المثل لهم و
قبلهم ٢٧٣ • وصفه بالنبى الأمى ٤
و ٣٠٠ وصف أمته فى القرآن
النساء . الافتتان بهن بالتدريج ٤٧
تهتكهن وفجورهن فى هذا الزمان ٨
سلامة المتقين من فتنهن ٥
شبهة من يزعمون المصلحة فى معاشر
لاختيار الازواج وشواهد على مما
ذلك ٨
النشرة للمريض وما يحرم منها ٢
النصارى . تأويلهم للبشارات بنبينا ٨
النصارى . عبادتهم لمريم والصالح
وصورهم وتماثيلهم ٩
النصر . وعد الله به للمؤمنين حجة
متأخرى المسلمين لا لهم ولا للكفار
المؤمنين الصادقين ٦٧
النصوص المحرفون لها من اليهود والمجوس
لافساد الاسلام ودولته ٣٥
النصوص فى رؤية الرب . تعارض
والاحتمال فيها ٣٧
النظر بمعنييه الحسى والعقلى ٦٠
« العقلى . تعظيم شأنه ٧٠
« « فى الملكوت . الحث عليه ٥٧
النعم بركة للمؤمنين وفتنة للكافرين ٤
النفس . درجاتها ٣ أمارة بالسوء ـ لوامة

صفحة

مطمئنة ٥٤٧
النفع والضر بغير الكسب لله وحده ٥٠٨
نكت البلاغة فى الجمل الحالية ١٥
النور . الحسى والمعنوى ١٧٢
« العالمى والنور الالهى والكهرباء ١٧٣
« ماورد فى الكتاب والسنة من إسناده أو إضافته إلى الله وإلى وجهه واطلاقه على كتابه ورسوله ١٧٢
النور مبدأ التكوين ومصدر التطور ١٤١
النور والحجب والتجلى الالهى ١٦٨
نور التجلى والحجاب ونور الرب ١٧١
نور الذكر فى الدنيا والقبر والحشر والصراط ١٧٠
نور الكشف مبدأ الشهود ١٦٨
النوم المغناطيسى والعمل فى حال النوم ١٦٠

﴿ هـ ﴾

هارون ، استخلاف موسى له ووصيته ١٢١
هارون ، تعنيف موسى له وجوابه ٢٠٧
الهجرة من الوطن لأجل الدين ٤
هداية الله وإضلاله ٤١٧
هداية الله وإضلاله بمقتضى سننه ٤٥٩، ٥٦٢
هداية الناس بالحق والعدل ٥٧٢
الهوى ، اتباعه والاخلاد إلى الأرض ٤٠٦

﴿ و ﴾

الوثنية فى الجاهلية وبعد الاسلام ١١٠
وجل القلوب لذكر الله ٥٨٩

صفحة

الوحدة الاسلامية باللغة العربية ٣١٣
الوحدة الاسلامية وجوب السعى لاعادتها كما كانت فى عصر السلف ٣٣٠
وحدة الوجود ووحدة الشهود ١٦٦
وزن الأعمال يوم القيامة ٥٦٨
الوطن والدين التعارض بينهما ١٠٤
وقائع كشفية للمؤلف وغيره ١٦٤
الوهابية ١٠٩
وهب بن منبه ، خرافاته فى عمر الدنيا ٤٧٢
« اسرائيلياته ٤١٤ و ٤٧٦ – ٤٨٠
الولاية الروحانية عند الجهلة والدجالين ٦٥٩
الولاية العامة والخاصة وجهل الجمهور بهما وبأهلهما ٦٥٨
ولاية الله ونصره للمؤمنين بشرطه ٦٦٧

﴿ ى ﴾

اليقين فى الايمان وغيره لا يستطيع صاحبه تركه ٦
اليهود ابتلاؤهم بالحسنات والسيئات ٣٨٢
« تأويلهم للبشارة بالمسيح وبمحمد ٢٣٨
« تقطيعهم أمماً منهم الصالح والطالح ٣٨٢
اليهود عقابهم بسلب الملك ٣٨٠ فسادهم بالطمع فى الدنيا وتمنى المغفرة ٣٨٣
يوحنا لم يعرف نفسه ولا المسيح ٢٣٣
يوسف عليه السلام ، معنى هم امرأة العزيز به وهمه بها ٥٤٦
يوم القيامة ، أسماؤه فى القرآن ٣٤٨

(تم الفهرس)